رواية

جريمة
في المدرسة الثانوية

نورا عبدالله

platinumbook
for advertising, publishing and distribution

مقدمة

عزيزي القارئ..

إذا كنت من محبي قصص التشويق والروايات البوليسية فلن أتردد في تقدير هذه الرواية لك..

فالرواية تدور أحداثها حول جريمة قتل في مدرسة الثانوية، وعندما يأتي المحقق ليكشف النقاب عن الحقيقة لا يجد نفسه إلا أمام ألغاز وخيوط متشابكة، وفي النهاية تساهم الحقائق الصغيرة والمعلومات الدقيقة في حل هذه المعضلة..

وللمزيد من الإثارة أنصحك - أيها القارئ – أن تقرأ بتركيز وتحاول تخمين الجانية بحسب الدلائل التي ترجحها، ومن الأفضل ألا تكتفي أبداً بحدسك.. ففي روايتنا هذه الكثير من الألغاز المتداخلة، وقد لا ترشدك "حاستك السادسة" وحدها إلى الحل.

كما أود التنويه بأن بعضاً من هذه الرواية كتبته باللهجة العامية الكويتية..

أرجو ألا يقلل ذلك من شأن العمل، فلدي أسبابي التي سأوضحها ما بين السطور..

إذ إنني فكرت طويلاً في كيفية استخدام اللغة قبل البدء بالعمل الفعلي على الرواية، ولم أجد أن اللهجة الفصحى – على الرغم من جمالها وعلو شأنها – قادرة على إيصال بعض الأفكار أو ختام بعض المشاهد لوحدها، فكان لابد من استخدام اللهجة العامية بعض الشيء.. خصوصاً عندما أجد نفسي في أشد الحاجة لاستخدامها لتوضيح طباع بعض الشخصيات أو طريقة كلامها ليتعرف عليها القارئ ويتعايش معها بشكل أكبر..

ووجدت أن بعض الجمل والعبارات لا تبدو في

هيئة جيدة أبداً عند كتابتها بالفصحى، إذ إنها تكون قريبة من اللهجة العامية، وبعضها تبدو ركيكة كما لو أنها تتوسلني أن أكتبها بهذا الشكل!..

لـذا فقد استخدمت العامية كلهجة بديلة لإصلاح تلك "الثغرة"..

وأتمنى ألا يدل ذلك على جهلي باستخدام اللغة كتابياً بقدر ما يدل على التنوع باستخدام لهجتين مختلفتين..

كما أنني وجدت نفسي مضطرة في بعض الحوارات أن أجعل إحدى الشخصيات تسأل بلهجة بينما تجيب الأخرى بلهجة مختلفة.. والحكمة وراء ذلك سيتعرف عليها القارئ من خلال تأمله للنص..

وفي النهاية، يبقى الحكم الأول والأخير لمن قرر الغوص في أعماق هذه الجريمة.

شكر وتقدير:

أشكر كل من شجعني على الاستمرار في الكتابة من بنات خالاتي وأقاربي، كما أوجه عظيم شكري لأختيّ (رهف) و(فاطمة) اللتين استشرتهما كلما مررتُ بثغرةٍ ما..

وأتمنى أن يكون الشكر وحده كافياً لوالديّ اللذين وقفا بجانبي منذ أول قصة كتبتها، وبالأخص أبي..

إن الكلمات تقف عاجزة وقاصرة عن تقديرك، وقلمي ينحني احتراماً جليلاً لك..

أشكرك جزيلاً من أعماق قلبي.

1

بعد انتهاء إجازة منتصف الفصل الدراسي الأول في إحدى مدارس الثانوية للبنات، بينما كانت الطالبات يتبادلن الأحضان الحارة وسط الأجواء الباردة في ممر صفوف المرحلة العاشرة.. كانت (سارة) منعزلة تماماً عمّا يدور حولها في العالم الخارجي، إذ أخذت تحدق في الفراغ وتتذكر أحداث الليلة الماضية متجاهلةً سخرية بعض الطالبات اللاتي أطلقن عليها لقب "أبو الهول"!..

وفجأة قطع حبل أفكارها صوتٌ قادمٌ من بعيد...

– (سارة).. (سارة).. ألا تسمعينني أناديكِ؟

لم تجب (سارة) واكتفت بالصمت والنظر لأسفل كناية عن التعب والإرهاق..

– كيف حالكِ يا عزيزتي؟ اشتقتُ لكِ كثيراً.

طبعت (هند) قبلة على خد صديقتها، ثم سألت في استغراب:

– لماذا يبدو وجهكِ شاحب اللون؟ ألم تنامي ليلة البارحة؟

تنهدت (سارة) بقوة قبل أن تقول بنبرةٍ قريبة من الصراخ:

– وكيف لي أن أغمض عينيّ في ذلك البيت الذي تنعدم به الرحمة الإنسانية؟!

قالت (هند) في دهشة:

– أوه، ماذا حصل؟!

– لقد تشاجر والداي طوال الليل ولم أستطع النوم..

صمتت (هند) منتظرةً صديقتها أن تكمل حديثها، ثم انطلقت قائلة:

– ولكن هذه ليست أول مرة يتشاجران فيها!..

– أعلم، ولكن قررت والدتي أن تذهب إلى بيت أهلها وأقسمت أنها لا تريد رؤية أبي مرة أخرى..

– وماذا عنكِ؟ هل ستذهبين معها؟

– هذا هو سبب شجارهما، لقد أرادت هي أن تأخذني معها بينما هو يرفض ذلك..

قالت (هند) بقوة:

– وكيف له أن يرفض ذلك؟!.. بالطبع لن تتركك والدتك معه ومع الزجاجة التي يشربها على مدار اليوم!!

احمرَّ وجه (سارة) خجلاً وطأطأت رأسها لأسفل فشعرت صديقتها بالحرج لما قالته..

– أوه.. أعتذر عن انفعالي بسرعة، لم أكن.. لم أقصد ما قلته..

قالت (سارة) محاولةً تهدئتها وتغافل خطئها:

– لا عليكِ، أظن أنه...

قبل أن تكمل (سارة) جملتها الأخيرة انضمت إليهما صديقتهما التي جاءت من نهاية الممر بحثاً عنهما، وسرعان ما صاحت عندما

رأتهما:

– صباح الخير أيتها الخائنتان!.. "يا سلاااام!.. أشوف نسيتوني ها؟ يعني فوق طلعاتكم اللي بالعطلة بدوني الحين مخلّيني بروحي وصار لي ساعة أدوّر عليكم!"..

قالت (هند) ساخرةً:

– اسمحي لنا يا (شيخة)، نحن لا نتكلم مع الغرباء الذين ليسوا في فصلنا..

ثم رفعت يدها لـ(سارة) وصفقت كل منهما يد الأخرى، فضحكت (هند) – أو بالأحرى صاحت – بصوتٍ عالٍ..

فقالت (شيخة) مازحةً لـ(هند):

– اخرسي أرجوكِ، أنا لا أتكلم مع أعدائي... ما بها قطّتي الأليفة حزينة؟ أكنتِ تبكين قبل قليل يا (سارة)؟

فأجابت "الحزينة":

– لا، أنا فقط متعبة..

تدخلت (هند) قائلة:

– أووووه، لقد تشاجر والداها بالأمس وأنتِ آخر من يعلم! وفوق هذا تناديها "قطتك الأليفة"!..

سألت (شيخة):

– لماذا؟ ما الذي حدث؟

كادت (هند) أن تشرح لها ولكن سبقتها (سارة) موضحةً:

– في الآونة الأخيرة زادت شجاراتهما إلى حد لا يطاق، فمنذ فترة طلبت والدتي الطلاق من أبي ولكنه رفض، وما زال يرفض.. لا أعلم ما

الذي يريده بحق الجحيم؟! لا يريد أن يتركنا نعيش بسلام ولا يوافق على الطلاق!

قالت (شيخة) محاولةً تهدئة صديقتها:

– لا عليكِ، أنا واثقة أنه سيأتي اليوم الذي ستنتهي به كل مشاكلك وستتذكرينها وأنتِ مبتسمة، اعلمي أنكِ أقوى مما تظنين.. لو كنتُ مكانك لكان أقل شيء أستطيع أفعله هو أن أنتحر وأتخلص من كل شيء!..

ابتسمت (سارة) وهي مازالت تكبت مشاعر الحزن والألم بداخلها..

– لا تقولي هذا، فكلنا بشر نرى أنفسنا أقوياء من الداخل بينما إبرة واحدة تستطيع إنهاء حياتنا بالكامل!!..

قالت (هند) ضاحكةً:

– صدقتِ أيتها الفيلسوفة..

تعالت ضحكات الفتيات ودارت أحاديثهن حول العديد من الأشياء في الدقائق المعدودة قبل بدء طابور الصباح، حيث بدأت (سارة) تنسى أمر الشجار شيئاً فشيئاً حتى اختفت كل معالم الحزن على وجهها!

2

انتهى طابور الصباح بعد انتظار دام طويلاً..

حيث بدا الطابور طويلاً ثقيلاً مريراً على كلِّ واحدة من الطالبات، وخصوصاً عندما مسكت مديرة المدرسة (المايكروفون) لتلقي "كلمتها" التي هي عبارة عن قصة تاريخ المدرسة بأكملها!..

فتلك اللحظة تعتبر بمثابة صفعة على وجوهِ الطالبات بداية كل فصل، بالإضافة إلى تمارين الصباح المملة التي "تحرك الدم" كما تدّعي المعلمات.. وكأن الدم كرة جليدية لا تتحرك إلا لو رفعنا أيدينا في الهواء عدة مرات كالبلهاء!!..

بعيداً عن كلِّ هذا...

بدأت الطالبات في السير لفصولهن على أنغام إحدى الأغاني الوطنية، وقد اكتظّت الممرات وعمّت الفوضى أرجاء المكان.. فكانت الطالبات (مع المعلمات) ينتظرن قدوم إحدى العاملات لتفتح الفصول لأنها كانت مقفلة...

نعم!.. إلى هنا وصلت صرامة مديرة المدرسة، فلقد أمرت العاملات والمرشدات (الفتيات المسؤولات عن تحية العلم) بإقفال الفصول قبل الطابور وفي الفرص أيضاً!..

في هذه الأثناء استغلت الطالبات الوقت في عناق بعضهن والاستمرار في التقبيل والاحتضان كأنهن لم يرين بعضهن منذ دهر!..

بعد دقائق من الانتظار وسط هذا البرد القارس انفتحت الفصول أخيراً.. لقد جاء الفرج!..

وبين الازدحام صاحت (شيخة) لصديقتيها:

– لا تنسيا.. سأراكما في الفرصة الأولى في مكاننا المعتاد..

ثم ابتعدت عدة خطوات حتى دخلت فصلها، وبدأت الطالبات بالدخول لفصولهن تدريجياً...

جلست (سارة) في الصف الأمامي المقابل لطاولة المعلمة وجلست (هند) بجانبها كالمعتاد..

كانت طاولات الفصل مرتبة على شكل (n)...

إذ كان هناك أربع طاولات في السطر الأيمن، وكذلك الحال بالنسبة للسطر الأيسر (الذي كان بقرب الباب)، وأما السطر الأوسط ففيه خمس طاولات..

بالإضافة إلى ست طاولات في منتصف الفصل أمام طاولة المعلمة مباشرة.. حيث تجلس (سارة) وصديقتها، وخلفهما (لطيفة) و(أمل)، وتليهما تجلس طالبة بجانبها مقعد خالٍ، وكان اسمها (أماني)..

دخلت المعلمة الفصل، وسرعان ما شهقت إبداءً لتعجبها:

– "بسم الله بس هذا صفكم؟! وين باقي البنات؟!".

صاحت إحدى الفتيات من الصف المقابل لطاولة المعلمة:

– "هاها، أبلة تلاقينهم منحاشين بعد وين".

تدخّلت (لطيفة) قائلةً:

– لا يا (منيرة)، رأيت بعض طالبات فصلنا في طابور المتأخرات.. إذ تُسَجَّلُ أسماؤهن ثم تسمح لهن المشرفة بالدخول.

ثم قالت موجهةً كلامها لمعلمتها:

– كما أن (دانة) و(لولوة) من فريق المرشدات، وسوف تأتيان قريباً..

هنا طرِقَ باب الفصل ودخلت الفتاتان اللتان ذكِرَ اسماهما، وبعد أن جلست كل واحدة منهما في مكانها، مضت ثوان قليلة ثم طُرِقَ الباب مرة أخرى، فقالت المعلمة:

– "خير إنشالله، وين كنتي يا (فاطمة)؟"..

أجابت الفتاة بصوتٍ عالٍ لتُضحك الطالبات:

– "أبلة أنا كنت متأخرة لأني مُخالِفة، وعندي ورقة سماح بالدخول، شوفيها إذا مو مصدقتها"..

وقرّبت الفتاة الورقة من وجه المعلمة وهي تلوّح بها، فقالت المعلمة بينما تنظر للفتاتين اللتين كانتا خلف (فاطمة):

– ولماذا خالفوكِ؟..

فقالت الفتاة وكأنها تفتخر بمخالفتها:

– "لأني كنت حاطّة كحل".

– "ماشالله! وتعترفين بعد؟! واللي وراچ هذولا هَمْ بعد مخالفين؟".

فأجابت واحدة من الفتاتين:

– "إي أبلة، احنا كان عندنا عرس أمس..".

فقاطعتها الأخرى قائلةً:

– "أبلة تعرفين أن (فاطمة) و(بدرية) بنات عم وأنا جارتهم، ولازم أروح معاهم العرس، وأفرح معاهم وأتأخر معاهم بعد!".

فقالت واحدة منهن:

– "إي عدل كلام (وضحة) عدل، عاد أمس بدّعنا بالعرس هاهاهاها"..

ثم انفجرت الفتيات ضحكاً دون أدنى احترام للمعلمة التي أمامهن!

– "بس أنتي وياها!، كل وحدة على مكانها يلا".

سألت إحدى الفتيات المعلمة:

– هل سوف ندرس؟..

– سوف نبدأ بالدراسة غداً بعد أن تستلمن الكتب إن شاء الله، والآن لتجد كل واحدة منكن شيئاً تفعله بهدوء، لا أريد إزعاجا أرجوكن..

ثم مسكت المعلمة هاتفها وأخذت تراسل أحداً ما، وما هي إلا ثوانٍ حتى طرقَ الباب مجدداً ووقفت خلفه فتاة حسنة الوجه، مرتبة الهيئة، وتبدو عليها مظاهر الاحترام والأخلاق العالية..

– السلام عليكم، هل هذا فصل 4/ 10؟

– نعم، من أنتِ؟

اقتربت الفتاة لتعطي المعلمة ورقة السماح بالدخول، فأجابت:

– "أبلة أنا طالبة يديدة، اسمي (نور)، انتقلت من مدرسة ثانية وهذا أول يوم لي.. تسمحين لي أدخل؟".

وما إن أنهت الفتاة جملتها حتى ضحكت طالبة كانت تجلس بالقرب من الباب، فرمقتها المعلمة بنظرة حادة ثم قالت لـ (نور):

– بالطبع يا عزيزتي، تفضلي.. لن أقوم بتدريسكن الآن لأنكن لم تستلمن الكتب بعد.. هذه حصة اللغة العربية، وهي الحصة الأولى..

ثم أخذت أنظار المعلمة تتجول في الفصل بحثاً عن مكانٍ للفتاة الجديدة..

– امممم، ما رأيكِ أن تجلسي بجانب زميلتك (أماني)؟ فالمقعد الذي بجانبها فارغ..

ثم قالت (أمل):

– "لا أبلة، هذا مكان (طيف)، هي أصلاً دايماً تغيب وما تداوم وايد"..

فقالت المعلمة:

– حسناً إذن.. ما رأيكِ أن تجلسي في الصف الأيمن بين (لولوة) و(وسمية)؟

أومأت الفتاة برأسها وتوجهت وشعرها القصير للمكان الذي أشارت عليه المعلمة، ثم ألقت التحية على كل من الفتاتين..

بدت على (وسمية) السعادة وردت عليها التحية برحابة صدر، أما الفتاة الأخرى فسرعان ما سحبت كرسيها لتنضم مع «ديوانية السوالف» مع بقية البنات..

– إذن أنتِ جديدة؟

– نعم، لقد انتقلنا للسكن في هذه المنطقة ولم نجد مدرسة قريبة سوى هذه..

دارت بين الفتاتين بعض الأحاديث، ثم قالت (نور):

– "إلا صج.. شنو قصة طابور المخالِفات هذا؟".

– " هذا سلمچ الله أي وحدة عندها مخالفة يوقفونها فيه، وبنهاية الطابور ياخذون اسمها ويأخرونها عن الحصة، وإذا زادت المخالفات

يوقعونها تعهد ويمكن توصل السالفة إلى فصل بعد!".

– "أمبييه!.. مخالفات مثل شنو يعني؟".

– "باختصار، كل شي نسوّيه ممنوع.. ممنوع تصبغين شعرچ، ممنوع تطولين أظافرچ، ممنوع تلبسين جاكيت ملوّن، وأي وحدة متحجبة ما تلبس حجابها يودّونها عند الوكيلة!.. هذا غير الغياب والتأخير اللي يحاسبون عليهم!".

– "واااي شنو هذا؟!، شلون متحملين؟".

فقالت (وسمية) مازحةً:

– "عادي كلها مية سنة ونتخرج هههههه".

ضحكت الفتاة بهدوء، ثم خفّفت من نبرة صوتها قليلاً فسألت:

– من هذه الفتاة التي تجلس بالقرب من الباب؟

– تقصدين التي ترتدي زي المرشدات؟

– نعم.

– هذه اسمها (دانة)، والثلاث اللاتي يجلسن حولها هن صديقاتها (أسماء)، و(مريم)، و(شهد)..

سكتت (وسمية) قليلاً ثم أكملت:

– إنهن صديقات منذ المرحلة الابتدائية، ولعلَّ القاسم الوحيد المشترك بينهن هو علاماتهن المتدنية وتخصصهن في الضحك على كل معلمة تأتي الفصل!

هزّت (نور) رأسها متفهمةً، ثم حدّقت بفضول إلى إحدى الطالبات التي أثارت استغرابها.. ثم سألت:

– ما بها هذه الفتاة التي تحدق في الأرض؟!

– أوه، هذه المسكينة اسمها (أماني).. سمعت أن والدها توفي أمامها في صغرها فأُصيبت بمشكلة في النطق وترهب الاقتراب من الناس، لذا هي لا تتحدث كثيراً، لكن بعض الحمقى يسخرون منها باستمرار وهي لا تستطيع ردعهم.. كم تحطم قلبي هذه الفتاة!..

– أوه، يا لها من مسكينة! سمعت أن المشكلة النفسية لا تتعالج بسهولة..

هنا قالت إحدى الطالبات بصوتٍ عالٍ يكاد يفجر طبلة الأذن:

– هيه (وسمية).. القِي عليّ قلمي الأزرق بجانبك..

– ولم لا تأخذينه بنفسك؟

فصاحت الفتاة كأن هناك عشرة رجال يصرخون معاً:

– "وأنتي الله يهديچ شفيچ مقاطعتتي؟، ترا كلها قلم، أقوم آخذه أحسن لي"..

فقامت الفتاة بتثاقل، خطواتها تترنح يمنة ويسرة.. كتفاها العريضتان تمنعانها من السيطرة على ذراعيها أثناء المشي، وشعرها القصير – الذي يكاد لا يكون موجوداً – لا يلمح أبداً بأنها فتاة!..

وفيما كانت تتوجه إلى طاولتها استمرت (وسمية) بتحديقها من

طرف عينيها، ولم تتوقف إلا حين ولّت الأدبار..

عندئذ تفجر الفضول في (نور) مرة أخرى، وسألت:

– من هذه؟

– ساذجة تُدعى (أسيل)، طوال الفصل الماضي تلاحقني وتجلس بجانبي فقط لأساعدها بالغش في الامتحانات.. والآن بعد أن تركتها ترسب يبدو أنها انتقلت لـ (منيرة) و(غزلان)..

– من؟؟

– ألا ترين تلك الفتاتين اللتين بالسطر الأوسط؟

– نعم، إحداهما محجبة والأخرى ذات شعر فاتح اللون..

– تماماً، وحتى لا تسألي.. فهؤلاء اللاتي بجانبيهما مشهورات بلقب "المهرّجات الثلاث"... مكانهن دائماً في السطر الأوسط – سطر "ضيوف الشرف" كما تسمّيه المعلمات – ولا يصدر منهن أي صوت سوى عندما تتحدث زعيمتهن (فاطمة)، والتي ما إن تنطق بكلمةٍ حتى ينفجر الجميع ضحكاً!..

فضحكت الفتاة بشدة، وقالت:

– يبدو صفا غريبا بحق..

– لم تري شيئاً بعد، أراهن أنكِ ستجدين العجب العجاب في صفنا الكريم..

وبالطبع لم يغب الفضول عن (نور) بعد ذلك، فأخذت تسأل عن كلٍّ

واحدة من الطالبات حتى عرفت كل شيء عنهن كأنها دخلت حياتهن وهي لا تزال في مقعدها!..

فعرفت أن (أسيل) لديها أخ توأم وهذا سبب تصرفها الصبياني بعض الشيء، وأن (سارة) تعاني من مشاكل عائلية ووالدتها تعمل معلمة أحياء في نفس مدرستهن..

وهذه المعلومة الأخيرة تفرَّع منها ألف سؤال وسؤال، فكيف ولماذا ومنذ متى يُسمح للمعلمات أن يعملن مع بناتهن في نفس المدرسة؟..

ومن سوء الحظ، كانت إجابة "لا أعلم" غير كافية أبداً لإسكات أسئلتها، فأجابت (وسمية) بأن وزير التربية وضع قراراً يمنع ذلك وسيتم تطبيقه في السنة القادمة..

إلا أن هذه الإجابة لم تقنع السيدة (نور).. لكن على الأقل ساعدت في إسكات صدمتها..

وبعد أن عرفت كل شيء عن كل فتاة، بدأت في إطلاق الأسئلة بشأن حياة (وسمية) الشخصية، ومن هنا أصبحت كل واحدة من الفتاتين تعرف الكثير عن الأخرى خلال أقل من ساعتين!.

ولم يتوقف الأمر هكذا، إذ بإمكاننا القول أنهما أصبحتا صديقتين منذ أول يوم..

وفي نهاية اليوم الدراسي تبادلتا أرقام هواتفهما لإكمال ثرثرتهما التي لا تنتهي!...

3

انتهى اليوم الدراسي الأول بأعجوبة، فكان مملاً بكل ما تحويه الكلمة من معان!.

– وأخيييييراً!...

قالتها (سارة) بينما كانت ترمي حقيبتها في الأرض..

دخلت الصالة وإذا بها تجد رائحة العفن تملأ المكان، وتخيلت لو أنها ذبحت عشرة فئران وخروفا وتركتها هنا لكانت الرائحة أقل قبحاً من تلك التي تعانق أنفها الآن!!..

تبعتها الأم في الدخول، وسرعان ما قامت باللعن والصراخ بكل شتيمة تعرفها!.. ثم أكملت «حفلة» صراخها على زوجها الذي كان مستلقياً على الأريكة وينشد أغنية بأسوأ صوت ممكن أن يسمعه الإنسان!..

– "الله ياخذك إنشالله وياخذ الساعة اللي عرفتك فيها! أنت ما تستحي؟!.. ما عندك كرامة؟!.. ماكو شغل بس قاعد وتشرب بهالسم!.. روح شوف الناس شيقولون عنا، كل ما مشيت بفريج قالوا عني مرت السكران!".

– "أنتي هيه!"..

قالها صارخاً ثم أطلق صوت حازوقة "زغطة"، فأكمل:

– "سمعيني عاادا!.. هذا بيتي وآنا حُر فيه، أشرب ما أشرب هذا مو شغلچ.. وإذا مو عاجبچ كلام الناس لا تطلعين من البيت.. أنتي وبنتچ حريم، والحريم ما لهم إلا بيتهم.. احمدي ربچ أني مخليچ تداومين

أنتي وهالصخلة!!!"..

التفتت الوالدة على ابنتها قائلةً:

– "(سارة) روحي دارچ"..

وفيما كانت الفتاة تصعد الدرج بخطواتٍ مرتعشة عاودت الزوجة الكلام:

– "أنت الظاهر ما ينفع معاك إلا إخواني، بس هيّن يا (فهيد)1، يصير خير.. إن ما خلّيتك تطلقني غصب ما أطلع أنا"..

فقام الزوج من الأريكة كالثور الهائج، وقال صارخاً:

– "والله وطلع لچ لسان يا بنت النجار!2.. تبين أذكرچ بماضيچ الأسود؟.. لا تنسين أنه لو مو آنا چان أنتوا للحينكم تعيشون ببساط الفقر، والحين عقب ما شبعتوا من فلوسي تطلبين الطلاق!"..

فدفع المرأة على الأرض بلا رحمة..

– "صچ أنك ما تستحي على ويْهك!"..

– أنا اللي ما أستحي على ويْهي يا **؟!!.. يا بنت الـ**!!"..

فأخذ يتلو عليها الشتائم واللعنات التي لا نسمعها حتى في الشارع! وقام بركلها وحذف كل ما تقع عليه عيناه دون مشاعر، وهي المسكينة التي لا حيلة لها سوى أن تصرخ.. ولكن مع الأسف، لن ترحمها دموعها ولا صراخها من "المتوحش" الذي عن طريق الخطأ أصبح إنسانا!!

---

١ تقليلاً لشأن اسم (فهد).

٢ لم يقصد أن هذا اسم قبيلتها. وإنما والدها كان يعمل كذلك في الماضي.

وفي هذه الأثناء كانت (سارة) تسمع كل شيء وهي في الأعلى، كانت تحتضن دمية قطنية اعتادت اللجوء إليها في كل مرة أرادت البكاء..

تمسك الدمية بقوة، وتقربها بشدة إلى صدرها.. لعلّها تنجح في تخفيف ألم قلبها الذي انتاب عليها فجأة، ولوهلةٍ.. تمنّت لو أنها هي الدمية، حيث لا تسمع صياحاً ولا نباحا، ولا تشعر بالبؤس الذي يملأ العالم القبيح!..

دقائق بعد أخرى.. غرقت الفتاة في خواطرها ودموعها بصحبة قطعة القطن التي شاركتها الأحزان، وشيئاً فشيئاً نامت والدموع تملأ عينيها، لتستيقظ بعدها وتجد الساعة السابعة ليلاً..

كانت هذه أول مرة تنام من دون أن تذاكر دروسها أو تقرأ قصةً ما...

1

انتهى الأسبوع الأول دون أخبار تُذكر..

حيث لا شيء جديد سوى الروتين الممل؛ الذهاب إلى المدرسة، تكرار سخافات طابور الصباح، الاضطرار إلى سماع هراء المعلمات وشروطهن التي لا تنتهي، العودة إلى المنزل بعد الخروج من "السجن"، ثم الاستماع إلى نصائح الآباء وتوسلاتهم ليبذل الأبناء جهودهم في الدراسة..

وهذا الوصف لا يشمل طالبة أو اثنتين، بل كل الطلبة بشكل عام.

كل شيء يبدو على نفس الوتيرة، كل الأحداث تُكررُّ نفسها يومياً، إلى أن جاءت تلك اللحظة...

بعد انتهاء الفرصة الأولى، بدأت الطالبات بالدخول لفصولهن استعداداً للحصة التالية، ألا وهي الرابعة..

وتماماً كالمعتاد، اكتظت الممرات بالطالبات كأن كل سكان الكرة الأرضية تتزاحم فيها!..

لعلَّ السبب وراء ذلك هو عدم رغبتهن في حضور الحصة الدراسية، إذ أن وقوفهن عادةً يكون بقرب الباب لاستكمال ثرثرتهن مع صديقاتهن في الفصول المجاورة، ولا يدخلن الفصل إلا بعد المعلمة.. أو أحياناً بعد أن تُقبّل أيديهن وتتوسل لهن بالدخول!!..

وما إن لمحت إحدى الطالبات مساعدة المديرة (الوكيلة) في نهاية

الممر حتى هرولت مسرعةً إلى الفصل، فكون أن الجرس قد رنَّ ستقوم القيامة على كل من تجدها خارج الفصل!..

وعلى الرغم من صرامة تلك المرأة البدينة الغاضبة دوماً إلا أنها تعتبر أكثر رحمةً وطيبةً من مديرة المدرسة!..

- "واااي هذي العلّة شعندها واقفة هناك؟!"..

قالتها (لولوة) تعبيراً عن غضبها، وأعقبت هذه العبارة عدة شتائم ودعوات بالهلاك!..

فقالت (وضحة):

- "جعل الماحي يمحيها إنشالله!، شجايبها هني عجوز النار؟!"..

ثم صاحت إحدى الفتيات من طرف الفصل:

- "بنااات، أي حصة علينا الحين؟".

فأجابت (لطيفة):

- "علينا اجتماعيات، الأبلة واقفة بالممر تكلّم الوكيلة"..

ووسط هذا الإزعاج والفوضى كان من المتعذر أن تسمع طالبة الأخرى ما لم تكن بجانبها...

في هذه الأثناء كانت (غزلان) قد انتهت للتو من أكل نصف شطيرة اشترتها من مقصف المدرسة، وقررت وضع النصف الآخر في حقيبتها لتأكله متى ما أرادت..

وما إن فتحت الحقيبة حتى تفاجأت بوجود ورقة بيضاء مطوية للنصف، سحبتها بهدوء وإذا بها ترى هذه الكلمات مطبوعةً عليها:

"احذري أن تفعلي ما يسبب لك الندم".

وانتهت الرسالة!.. هكذا فقط دون توضيح!!

وقفت الفتاة في الزاوية تقرأ هذه الكلمات..

ما الذي تعنيه؟.. أخذت تتأمل وتفكر في مقصدها بينما دقات قلبها تسابق نفسها، ثم قامت بتحديق فتيات فصلها وتتساءل في نفسها من منهن وضعت الورقة؟..

وما هي إلا ثوانٍ حتى وقعت عينيها على صديقتها (منيرة) التي قد فتحت حجابها وقامت بتعديل شعرها..

– "منيروه!!.. أنتي اللي حاطّة هالورقة عندي؟!"..

قالتها (غزلان) بنبرة قريبة من العصبية مع المزاح في آنٍ..

فردّت صديقتها بتعجب:

– أي ورقة؟؟!.

– "منيروه!.. حركاتچ هذي أعرفها عدل، بس صدقيني ترا هالمقلب فاشل وما يمشي معاي!"..

– "أي حركات؟!، بعدين ورقة شنو اللي تتكلمين عنها؟".

– "شوفي"..

فأعطتها الورقة ثم قرأتها في عينين ترى الدهشة قبل الكلمات نفسها..

– غزولة شفيچ؟!، آنا مو كنت معاچ طول الفرصة؟.. شلون أحط هالورقة بدون ما تشوفيني؟!".

فسرعان ما صاحت الأخيرة قائلةً:

– "هاا يعني تعترفين أنه أنتي اللي حاطّتها! وإلا شـدرّاچ أنها انحطّت بالفرصة؟".

– "يا سـلاااام! شي طبيعي أنها انحطّت بالفرصة، لأن توّچ لقيتيها"..

قالت عبارتها الأخيرة بينما تضع حجابها في حقيبتها، وإذا بها أيضاً تلمح ورقة كالتي وجدتها صديقتها..

ففتحتها، ثم اقتربت منها (غزلان) لتقرأ عليها:

"يبدو أن الجمال يعيش في جينات عائلتكم، أنتِ محظوظة لأنكِ ولدتِ في أسرةٍ كهذه..

لولا نسبكِ لتصرفتُ معكِ بشكلٍ آخر".

احمرَّ وجه الفتاة بعد قراءتها للورقة، فقالت:

– "بسم الله، شنو هذا؟!".

ثم ضحكت (غزلان) بصوتٍ عالٍ..

– "إي سوّي نفسچ ما تدرين، الحين مادحة نفسچ وكاتبة جينات الجمال وتسوّين نفسچ ما تدرين منو اللي حاط هالورقة!".

– "يبة شفيچ؟ والله ما أدري عن شيء!".

حاولت (منيرة) إثبات برائتها لحوالي دقيقة أو اثنتين، إلا أن جميع محاولات باءت بالفشل!..

فهذه ليست أول مرة تفعل فعلةً كهذه وتقسم فيها كذباً.. لذلك لم تصدقها صديقتها، ولن تصدقها.

وفي هذه الأثناء دخلت المعلمة وصوت حذائها المرتفع يعلو المكان، بينما اللبان (العلك) يتراقصُ في فمها..

جلست بعد أن ألقت التحية، ثم أشارت بيدها – التي تملأها الخواتم والإكسسوارات – إلى إحدى الطالبات وأمرتها بكتابة التاريخ والعنوان على السبورة.

كانت الطالبة التي اختارتها هي (دانة)، كونها الأقرب من الباب..

توجّهت الفتاة ذات الشعر القصير إلى السبورة، ثم كتبت ما أمرتها به معلّمتها بخطٍ عريض بيدها اليسرى..

فسألت المعلّمة الطالبات:

– إلى أي صفحة وصلنا الحصة الماضية؟

فأجابت (لطيفة) و(أمل) معاً:

– إلى خريطة شبه الجزيرة العربية..

مضت لحظة صمت قصيرة، فكسرتها المعلّمة قائلة بتعجب:

– "أوه! (طيف) عندنا.. وأخييراً داومتي، ما بغينا نشوفچ!".

كانت (طيف) حينها تقوم بحك أذنيها عمداً لتتظاهر بأنها لا تسمع شيئاً، حتى لا تضطر إلى إعطاء نفس التبريرات لكل معلمة تدخل الفصل!..

لكن هذا لم يمنع المرأة من استكمال حديثها..

- "إلا ما قلتي لي، ليش كنتي غايبة طول هالمدة؟".

أسندت الفتاة ظهرها على الكرسي، فأجابت بنبرة جافة:

- "كنت مسوية عملية".

- ما تشوفين شر، بس لا تنسين تجيبين ورقة طبية عشان ما يحسبون الغياب، وانقلي الدروس من البنات وإذا فيه شي مو فاهمته قولي لي"..

هزّت الفتاة رأسها، ثم راحت تقلب بخصلات شعرها غير المرتب الذي كان بتسريحة ذيل الحصان..

عندئذ، تلفتت أنظار المعلّمة نحو الطالبات لتتأكد من حضور الجميع، فاستوقفت عينيها على إحداهن، فقالت:

- "(منيرة) وين حجابچ؟".

تنهدت الفتاة، فقالت بتمايل:

- "أبلة والله حر، ما أقدر..".

هنا صاحت (أسيل) قائلةً:

– "أي حر هذا اللي تتكلمين عنه؟!.. آنا ميتة برد وشوي وأموت وأنتي تقولين حر!".

فرمقتها الفتاة بنظرات حادة، ثم عاودت المعلمة كلامها:

– "(منيرة) أنتي طالبة شاطرة عندي، لا تخلّيني آخذ تصرف مو زين بحقچ، وعلى فكرة الوكيلة الحين بالممر ويمكن تدخل الصف"..

قالت الفتاة بكبرياء كأنها لا تخشى شيئاً:

– "عادي خل تشوفني، أصلاً هي مو حافظة شكلي وما تدري أني متحجبة..

وأساساً ماكو سبب يخلّيني ألبسه، كلنا بنات ومافيه رجال بينّا"..

غضبت المعلمة بعض الشيء وازداد صوتها حدةً:

– "أنتي من متى تراددیني چذي؟ أول السنة كنتي ملتزمة والحين صرتي كل يوم من المخالفات!..

آنا محد يفصخ حجابه بحصّتي، إذا ما تبين تلبسينه روحي عند الوكيلة وقولي لها!"..

احمرَّ وجه الفتاة فأطلقت شتيمة بصوتٍ يكاد لا يسمعه أحد، ثم سحبت حجابها من الحقيبة بعنف ووضعته بإهمال على رأسها..

عندئذ ساد الصمت الفصل لبعض ثوانٍ، فقالت المعلّمة:

– "يا بنتي أنا أبي مصلحتچ، ما يصير تسوّين كل شي تبينه، لازم فيه قوانين تصونچ وتحمي المكان اللي أنتي فيه".

فتدخلّت (مريم) قائلةً:

– "انزين أبلة فيه وايد قوانين سخيفة بالمدرسة ومالها داعي، يعني هم شكو لو صبغت أظافري أو لبست خاتم وإلا سوارة؟!".

– "ليه أنتي جاية عرس وإلا مدرسة؟ هذا مكان للدراسة مو للعب"..

قالت (وسمية):

– "أبلة أنتي قلتيها بنفسچ.. هذا مكان للدراسة، يعني محد له شغل بشكلنا وملابسنا"..

أيّدتها صديقتها (نور):

– "إي صح كلامها.. بمدرستي القديمة كانوا يسمحون لنا بصبغ الأظافر ولبس الاكسسوارات وحتى – تكرمون – الجواتي الملونة".

فقالت المعلّمة:

– "والله عاد كل مدرسة لها قوانينها، هذا يرجع للناظرة"..

ثم قالت (بدرية) بصوتٍ عالٍ كما لو كانت تتكلم من مايكروفون:

– "أبلة بس هذي حريةٍ شخصية، مو تقولون أن الكويت دولة

ديموقراطية؟!".

أجابت المعلمة بعد أن أعطتها تنبيهاً بأن تخفض صوتها:

- "بس الديموقراطية شي، والحرية شي ثاني، بعدين احنا مو قاعدين بغابة.. لازم فيه حدود...."

صاحت (فاطمة) مقاطعةً معلمتها:

- "بس ما يصير كله قوانين بكل مكاان! خل يخفّفون علينا شوي!"..

وقالت (دانة):

- "إي صح صح.. أنا أطالب بالأناركية!"..

التفتت (هند) بدهشة، فسألت:

- "يعني شنو؟!".

- "معناها (اللاسلطوية).. يعني ما فيه شخص يحكم ويتحكّم فينا".

ضحكت المعلّمة وقالت مازحةً:

- "ياشين عيال هالجيل لمن يتثقّفون باللي ما يخصهم!..

أولاً أنتي وياها.. الأناركية فكرة -أو بالأحرى فلسفة سياسية- معناها لا حاكم أو لا سلطة باللغة اليونانية، والفكرة تقوم على مبدأ اللاسلطوية.. يعني أفرادها يرفضون فكرة وجود حاكم أو رئيس للدولة.. يعني ما لها شغل بالمدرسة..

وثانياً كل وحدة تفتح كتابها عالخريطة يلا، ما بقى شي

عالجرس"..

كاد الحديث أن ينتهي هنا، ولكن لعلَّ الشيء الوحيد الذي تشترك به جميع الطالبات هو عشقهن لضياع وقت الحصة والحديث عن أي شيء خارج موضوع الدروس!..

فصاحت (لولوة) مستغلةً وجود فرصة للحديث:

– "أبلة لحظة.. أنتي مو قلتي أن لازم فيه حدود وقوانين، يعني وين الحرية بالموضوع؟.. أتوقع لو كنا بالسجن أحسن، عالأقل ما يتحكمون فينا لهالدرجة!"..

تنهّدت المعلّمة فسألت:

– ما مفهومكِ للحرية؟

فكّرت الفتاة فأجابت:

– "اممم، أتوقع أن ما تكون فيه قيود، أو ما يجبرونا على شي ما نبيه".

– "لا يا بنتي، أنتوا محد يجبركم على شي، كل هالأشياء اللي يؤمرونكم فيها من مصلحتكم"..

صمتت المرأة قليلاً ثم أكملت قائلةً:

– أعلم أنه لا يوجد تعريف واحد للحرية، لكن من رأيي الشخصي أن كل القوانين الموجودة – سواء التي داخل المدرسة أو في المجتمع –

هي التي تحمي حريتنا وتصونها.. فمثلاً لو لم يكن هناك قانون يمنع القتل وتركنا الجميع يقتل دون ردع، بهذه الطريقة سوف نتعدى على حقوق الضحايا ونسلب منهم حق الحياة.. وبهذه الحالة لابد من وجود قانون يحمي حياة الآخرين ويمنع التعدي عليهم، وبنفس الوقت ينشر الأمن والأمان بين الناس.

ما كادت المعلّمة تنهي جملتها الأخيرة حتى قالت (أسيل):

– لقد قرأتُ ذات مرة أن الحرية في الفلسفة هي ألا يكون المرء عبداً ولا سجيناً، وأن يفعل المرء ما يريده وليس ما يريده الآخرون، هل هذا صحيح؟

أجابت المعلّمة بالإيجاب، ثم عاودت الفتاة الكلام:

– "طيب لو أنا أبي أقتل شخص، والقانون منعني.. هذا يعني أن القانون منعني من تنفيذ إرادتي، فهل هذا يعني أنه انتهك حريتي؟!"..

سألت (غزلان) بتعجب:

– "يعني أنتي تبين تقتلين أحد؟!!".

– "آنا قلت مثلاً.. وطالما أن القانون ما يمنع التفكير ولا الإرادة فآنا حُرة.. أفكر باللي أبيه دام أني مو قاعدة أؤذي أحد بأفكاري".

غضبت (غزلان) فطرحت سؤالها بصيغة مختلفة:

– "طيب لو بيوم من الأيام بغيتي تتخلصين من أحد، راح تقتلينه؟!".

قالت الفتاة بتكبر:

– بعيداً عن سخافات الحرية والفلسفة، أنا لو أردت فعل شيء سأفعله دون قيود ولا قانون.. لا شيء يمنعني، ولا أخاف من العقوبة.

قالت (مريم) بحدة:

– "يا سلاااام! يعني على كيفچ تقتلين؟!!.. أرواح الناس لعبة عندچ!.."

قاطعتها (أسيل) بجفاف:

– "أنا بعدني ما قتلت أحد، وبعدين أنتوا اللي تكلمتوا عن هالموضوع السخيف وأنا قلت رأيي".

صاحت (وسمية):

– "أنتي هيه!.. مو أي شي تسوّينه وتخربينه يكون تحت اسم الحرية!، احنا كنا نتكلم بحدود، أنتي اللي قلبتي كل شي فوق بعض!".

تدخّلت (أمل) وقالت بهدوء:

– أستغفر الله وأتوب إليه، هداكِ الله يا (أسيل).. منذ متى أصبح التحرر هو مخالفة شرع الله وحدوده؟!.. كل هذا بسبب التأثر بأفكار الغرب وأعداء الإسلام!.. أستغفر الله العظيم!

كل هذا يحدث أمام عينيّ المعلّمة.. كانت تستمع إلى الطالبات وعلى شفتيها ابتسامة عريضة أخذتها إلى عالم ذكرياتها.. حيث أخذت تقارن في داخلها بين فتيات اليوم والأمس، وكيف كان أبناء الماضي بالكاد ينطقون بحرفٍ أمام الكبير، أما الآن فأخذوا يتصايحون ويتشاجرون في عدة مواضيع.. والغريب بالأمر أنهم متكاسلون عن الدراسة وبنفس الوقت لديهم ثقافة بالتكنولوجيا والتطور وكل ما هو خارج قاعة الفصل!..

قُطِعت خواطر المعلّمة عندما سمعت (أسيل) تقول بصوتها الصبياني الذي قد يصل للشارع:

– "أنا مفهومي عن الحرية أني أسوّي اللي أبيه طالما أني ما أضر الناس بدون ما أحد يمنعني، وأنتوا كيفكم!".

تعالت أصوات الفتيات وتكاثرت، فجاءها صوت صارخ بغضب:

– يا لكِ من غبية خرقاء!.. تقولين أنكِ لا تؤذين أحداً بينما تسمحين لنفسكِ بقتل الناس!.. وكأن القتل ليس بإيذاء!

ثم صاحت إحداهن:

– ليست الحرية هي القتل أو إزالة القيود، الحرية بالنسبة لي أن أستحم دون أن أضطر لوضع قطن في أذني حتى لا يدخل الماء!

ساد الصمت الفصل بعد أن أنهت الأخيرة جملتها.. توجّهت الأنظار حولها بسخرية وبعضها باستغراب، وكان الضحك هو الرابط

المشترك بين هذه النظرات.. فقالت لها (دانة):

– اصمتي يا (أسماء)، لا شأن لنا في التهاب أذنك اللعين!

تنهدت المعلمة وقررت الحديث أخيراً بينما تضع يداً على خدها والأخرى تمسك بها هاتفها:

– "ها، خلّصتوا؟!".

ثم رفعت (أماني) يدها وسط غرابة أعين المتطفلين، فسمحت لها المعلمة بالحديث..

أخذت نفساً عميقاً.. شدّت قبضة يدها بقوة، ثم وضعت رجلاً فوق أخرى بينما تضغط على أصابع قدمها بقوة..

وبعد كل هذه الحركات التي قد أخذت قرابة ثانيتين من الصمت، أجابت بتردد:

– "بـ.. بالنسبة لي، مافيه شي اسمه حرية"...

احمرَّ وجهها بينما دقات قلبها تقفز بعنف.. ثم ملأت رئتيها بالهواء لأقصى حد وأكملت بصعوبة:

– "لأننا فجأة أتينا للوجود بدون ما يتم تخييرنا فيه، هذا وحده يكفي أن يدحض فكرة الحرية"..

سكتت قليلاً فيما تحاول نطق الحرف التالي.. كانت شفتاها

تلامسان بعضهما دون أن تصدر صوتاً بسبب احتباس الهواء بداخلها.. وأخيراً بعد صراع مع تشنجات عضلات وجهها أجابت بنبرات غير واضحة:

– "بالإضافة إلى أننا ما اخترنا أي شيء من حياتنا، فكل شيء حددته الوراثة والبيئة والتربية، ابتداء من الشكل الخارجي أو الميول أو حتى قوة مناعة جسمنا!"..

حاولت الإسراع من كلامها حتى لا تضطر للحديث أكثر، فازدردت لعابها فجأة وأكملت:

– "وو.. واحنا مقيدين بالقوانين والشرع، وما دام أن ما نقدر نخالفهم ولا نقدر نضر نفسنا بتعمد إذن احنا مقيدين بمعظم أفعالنا، وبالتالي حتى لو فيه حرية فهي مقيدة وما راح تكون مطلقة أبداً!".

انتهت من كلامها الذي أخذ وقتاً أطول من المفترض، ولكن نظرات التعجب والدهشة (والسخرية أيضاً) لم تنتهِ ولم تتوقف!..

قد يكون من الغريب أن تتكلم تلك الفتاة الصامتة، ولكن الأغرب أنها استخدمت اللهجة الفصحى بمعظم عباراتها؛ لهجة الكائنات الفضائية كما تعتبرها الطالبات لشدة صعوبتها بالنسبة لهن!

وسرعان ما زادت الهمهمات في الفصل.. فتلك التي تستهزئ بطريقة كلامها، وتلك التي تهمس بأذن صديقتها بكلامٍ لا يسمعه إلا الله..

ووسط هذه الهمسات جاء صوت (شهد) التي قالت لتُضحك صديقاتها الثلاث:

– "أووووه، يا عيني على الفلسفة، أنتي الظاهر لمن تجوعين تاكلين المكتبة!".

فتعالت أصوات الضحك في الفصل كما توقعت الفتاة.

وأخيراً أثبتت المعلّمة وجودها بعد طول الانتظار.. إذ أمرت الطالبات بالتزام الصمت وإكمال الدرس في الدقائق القليلة المتبقية من الحصة، وبالطبع أعطت (أماني) ما تستحقه من درجات.. ليس فقط لأنه أعجبها كلامها، بل لأن هدوءها وحده تستحق عليه الثناء والتقدير، على عكس معظم الطالبات اللواتي لا يخجلن أبداً من استعراض قدرات أحبالهن الصوتية!

2

في بيت (أماني)، وتحديداً في غرفتها الضيقة..

كانت الفتاة تجلس أمام المرآة وتحدق في وجهها الحزين..
الصمت كئيبٌ، والهدوء رهيب.. لدرجة أنها قد تسمع صوت احتكاك جفنيها عندما ترمش!..

أخذتها ذاكرتها في رحلةٍ إلى أسوأ المواقف التي عاشتها..
فتارة تتذكر إخفاقها بالمواقف الاجتماعية وأنها لازالت تمضي أيامها وحيدة بلا أصدقاء، وتارة يعرض لها عقلها صور نظرات الناس لها وضحكاتهم عليها..

توقفت قليلاً فتساءلت في نفسها، لماذا بعض الفئات من الناس يجدون الكلام عفوياً ويحدث دون تكلف بينما بالنسبة لها هو مسألة حياة أو موت؟!.. ولماذا يجد الآخرون أن التأتأة في الكلام أمر مضحك؟ أو قد يدمعون ضحكاً لو رأوا شخصاً تعثَّرَ بخطواته وسقط؟!

تكاثرت أسئلتها خلال جزء من الثانية..

تساءلت لو كانت تستطيع الشفاء، ولكن هل ممكن أن تتشافى في يوم وليلة؟ وماذا عن الذين يستهزئون بها ويسخرون طوال

الوقت.. هل سيعاملونها بشكل "طبيعي" بعد شفائها؟!..

– أغبياء!

قالتها في نفسها وهي تُذكِّرُ نفسها في هدفها في الحياة.. تذكرت بأن لديها ميولا طبية، وتطمح بأن تصبح طبيبة تساعد الناس وتخفف من معاناتهم..

مرة أخرى وقف بوجهها كابوس التأتأة اللعين، وتذكّرت أن أي شيء يتطلب الحديث ولو بحرف فهو يضعها على حافة الموت خلال لحظة!

زادت نظراتها للمرآة حدةً..

صوتٌ بداخلها يخبرها أن شيئاً كهذا غير مهم، فالموتُ قادمٌ في أي لحظة وعندئذ لن يكون للعالم هذا أي أهمية بالنسبة لها..

قالت لنفسها بأنها ستحقق رغبتها مهما بلغت صعوبتها، لن تهتم لتعليقات الآخرين عليها، وأن....

قطع حبل أفكارها الموقف الذي حصل اليوم في حصة الاجتماعيات، فتذكرت سخرية الوحوش البشرية منها، وكيف أنها حاولت تردُّ على إحداهن ولكنها تجمدت في مكانها كالثلج!.. بل حتى الثلج لا يبقى متجمداً مثلها!!.

هزّت رأسها يميناً وشمالاً بأسف وأخذت تلعن العالم وتدعو بالهلاك – في داخلها – لكل من جرحها يوماً بأيِّ شكلٍ كان!..

وما هي إلا ثوانٍ حتى عاودتها أفكارها السوداء مرة أخرى؛ أفكار الانتحار!

سبق أن رسمت خطة كاملة متكاملة عن طريقة تنتحر فيها بحيث تشير كل الأدلة إلى أن وفاتها جريمة قتل، وتضع الشبهة على أكثر الأشخاص الذين تكرههم في الوجود!

حاولت إسكات تلك الأفكار، ليس فقط لأنها غبية وتشبه حبكات الأفلام والروايات، بل أيضاً لأنها صعبة التطبيق، فرجال الشرطة ليسوا بأغبياء حتى يخدعهم الأموات بهذا الشكل!..

– وحتى لو كانت تلك الأفكار سهلة التطبيق، فلماذا أنتحر؟.. فقط لأنني أمتلك خطة للانتحار؟!

سألت نفسها، ولكن سرعان ما أعطت لنفسها أسباباً تؤيد ذلك.. فليس فقط المواقف التي تمرُّ بها يومياً تدفعها لإنهاء حياتها، بل أيضاً الشر الموجود في العالم لا يُحتمل، والحياة غير عادلة، كما أنها من الصعب أن تكمل مستقبلها بهذه الطريقة.. ناهيك عن أن الحياة بأكملها عبثية ولا هدف منها، بل إننا لم نُخيّر فيها حتى!!

بدأ الصداع ينتابها بسبب الإرهاق، تمسح رقبتها المتصببة عرقاً فيما تقول في داخلها بأن أسبابها تلك غير كافية، فالكثير من العظماء تحدّوا مصاعبهم.. وفجأة بدأت تسخر من نفسها لمقارنة حياتها بالـ«عظماء»!

– لا أهتم، ولكن لن أنتحر!..

قالتها في نفسها بعناد..

ازدادت الغرفة حرارةً، أفكارها أخذت تتضارب وتتناقض مع بعضها مرة أخرى.. فتارة تتمنى أن تختفي من الوجود، وتارة تجد نفسها قوية وتستطيع أن تهزم مصاعبها..

تحاول مقاومة أفكارها السوداء والتفكير بشيءٍ آخر فتفشل بنجاح، كأن كل الطرق تؤدي إلى التفكير بالموت!..

غضبت بشدة.. احمرَّ وجهها وانتفخ، أسرعت بإمساك أقرب شيء إلى يدها وقذفته بعصبية بينما تصرخ:

– لن أموت!.. لن أموت قبل أن أحقق هدفي!

تسمّرت في مكانها عندما انتبهت بأنها قد جرحت نفسها وبدأت تنزف بعض قطرات الدم الصغيرة!..

أدارت وجهها لترى تمثالاً للعالِم (آينشتاين) مكسوراً ومهشّماً لقطعٍ صغيرة.. كان هذا هو الشيء الذي قد حذفته!

– أوه!.. تباً!

قالتها بعصبية وهي تتحسر على ما فعلته دون إرادة، فهذا التمثال الزجاجي الصغير كان لديها منذ أربع سنوات، والآن أصبح منثوراً في الأرض بلحظة واحدة!

أخذت تجمع القطع المكسورة لتُلقيها في القمامة قبل أن تراها

والدتها..

ووسط هذا الهدوء القاتل رنَّ هاتفها وارتعبت عندما سمعته فجأة..

اقتربت لترى الرقم على الشاشة وإذا به رقم غريب.. وبما أنها قد سجلت جميع أرقام مَنْ تعرفهم (والتي بالمناسبة لا تزيد على عشرين رقماً) فإذن لا يوجد سوى احتمالين: إما أن يكون المتصل هو أحد المطاعم أو الشركات الذين يبحثون عن زبائن مهتمّين بعروضهم، أو أن يكون المتصل مخطئاً.. وفي كلتا الحالتين ستكون المكالمة قصيرة ولن تنطق سوى بعدة كلمات..

– جيد، هذه بداية لا بأس بها في التغيير..

قالت هذا فيما كانت عيناها تتفحصان الرقم جيداً لتتأكد أنه ليس من خارج البلاد.

وبعد هذه الجلسة «التحليلية» قررت الرد أخيراً..

رفعت السماعة وحاولت أن تقول شيئاً ولكن المتصل سبقها:

– "أهلاً أهلاً!.. شدعوة ساعة كاملة عشان ترفعين السماعة، خرّعتيني قلت يمكن ماتت وإلا صار فيها شي!".

ندمت الفتاة لأنها ردَّت على الاتصال، فلم تتوقع بأنها ستسمع صوتاً مزعجاً كهذا!..

ثم قالت بصعوبة واضحة:

- مـ.. مـ ممن أنتِ؟

وسرعان ما صاحت المتصلة:

- "ما عرفتيني؟.. أفاا! أنا صديقتچ اللي أحبچ وأموت فيچ".

واضح من نبرة صوتها بأنها لا تقصد حرفاً ممّا تقول!.. وفي البداية كانت (أماني) تشك في هوية المتصلة، لكن الآن عرفت وتأكدت بأنها (دانة)..

فعاودت الأخيرة حديثها:

- "ليش ساكتة؟ أنتي متضايقة مني؟".

كانت (أماني) تبحث عن شيء تقوله، وبعد تردد سألت بصعوبة:

- كـ كيف عرفتِ رقمي؟

- "بسيطة، قعدت أجرّب كل أرقام الكويت لمن لقيت رقمچ".

فأطلقت بعدها ضحكةً عالية تتفوق على صوتها في الازعاج!.. ثم قالت (أماني) في شيءٍ من الحدة:

- لا أظن أن هذا ممكن..

أكملت الفتاة ضحكتها فأجابت:

- "كنت أتغشمر معاچ.. أنا مسجلة رقمچ من زمان، أنتي نسيتي المجموعة اللي فيها بنات صفنا؟.. الله يسامحچ طلعتي مو مسجلة رقمي!".

كانت تقصد المجموعة التي عملتها إحدى الطالبات في تطبيق (الواتساب) المختص بالرسائل النصية..

كانت (أماني) تحاول أن تخبرها بأن جميع أرقام هاتفها انمحت في الآونة الأخيرة، كانت تشعر بضيق التنفس بسبب التوتر، وتشدُّ عضلات وجهها محاولةً النطق ولو بحرف، ولكن الهواء محتبساً بداخلها ويرفض الخروج!..

ظنّت زميلتها أنها لا تريد قول شيء، أو ليس لديها ما تقوله، لذا سبقتها وقالت:

- "المهم، كتبتي واجب الرياضيات اليوم؟.. أنا كنت عند المرشدات فما حضرت الحصة"..

فأجابت الفتاة بالنفي بعد صمتٍ دام لعدة ثوانٍ، وسرعان ما صاحت الأخيرة وهي تمدُّ الأحرف بطريقة تثير الاشمئزاز:

- "لييييش؟!.. والله ما توقّعت هالشي منچ يا (أماني)، هذا وأنتي الشاطرة اللي مافيه أحسن منچ واللي تقدرين تنقليني الواجبات والدروس بسرعة البرق وچذي تسوَين!.. حتى (أسيل) الهبلة كتبت الواجب، وإذا مو مصدقتني افتحي المجموعة وشوفي.. بس أنا قلت آخذه منچ أحسن، لأن انتي شاطرة وراح تكتبينه كله صح".

كم تكره عندما يُكلّمها أحد بهذا الأسلوب!..

بحثت عن شيءٍ قد يُنهي المكالمة، فقالت:

- سأكتبه قريباً..

ولكن يبدو أن تلك الفتاة لن تصمت، فعلى الرغم أنها تشعر -وشعورها مصيب - بأن (أماني) غاضبة وتريد إنهاء الحوار بأسرع وقت، إلا أنها تجاهلت ذلك وعاودت الكلام:

- "إي عفية، إلا صج ما قلتي لي.. باچر راح تداومين؟.. تعرفين أن عطلة العيد الوطني بعد يومين، ويمكن أغلب البنات ما راح يحضرون باچر.. آنا عن نفسي يمكن أداوم بس أقعد مع رفيجاتي وما أحضر الحصص، وأنتي؟"..

يا لها من ثرثارة!.. بإمكانها فقط تسأل وتصمت بما أن ليس لديها إجابة!..

هكذا فكّرت (أماني) في نفسها قبل أن تجيب بتثاقل:

- لا أعلم..

قالت ذلك ثم دخلت والدتها لتخبرها بأنها ستذهب مع صديقاتها وتعود بعد ساعات.. وسرعان ما أغلقت الفتاة هاتفها دون أن تقول شيئاً لزميلتها..

وبالطبع سألت الأم ابنتها عن هوية الذي كانت تتكلم معه، واستغرق الأمر حوالي ثلاث ثوانٍ من الصمت وتشنج عضلات الوجه بسبب الهواء المحتبس، وبعدً ذلك تفجّرت من فمها أحرف عشوائية مع تلعثم شديد في الكلام..

وبدلاً من أن تواسي "الأم" ابنتها، صرخت بوجهها معلقةً على طريقة كلامها، ثم أخبرتها بأن لا فائدة منها في الحياة

وأنها من الممكن أن تحسن نفسها لو لم تكن غبية هكذا!.. وبعد ذلك أمرتها أن تعتني بأخيها ذي الأربعة أعوام، وتجعله يشاهد فيلم الكرتون الذي يفضّله، وتطبخ له العشاء، وتنظف كل ما يتَّسخ في البيت و....

مهلاً، ألم تصفها قبل قليل بأنها "عديمة الفائدة"؟!

1

انتهت عطلة الأعياد الوطنية التي استمرت لأكثر من أسبوع على الرغم أنها من المفترض ألا تزيد على يومين!..

هذا هو حال معظم – أو ربما جميع – المدارس في (الكويت).. إذ يغيب الطلبة قبل وبعد العطلة الرسمية ليومين، مما يسبب تغيراً كبيراً في الروتين والاعتياد على السهر وقلب الساعة البيولوجية رأساً على عقب!..

ولكن من حسن الحظ أن هذه العطلة الأخيرة التي يشهدها الفصل الدراسي هذا ما لم تحصل تغيرات شديدة في الطقس تجبر الطلبة على الغياب.. ولكن هذا الاحتمال يبدو ضعيفاً في الفترة الحالية.

والآن.. ما هو أول شيء قد يحدث في طابور الصباح بعد كل عطلة في تلك المدرسة التي تُديرها "أكثر امرأة غضباً في العالم"؟؟!..

بالطبع الأمر بعيداً عن تهنئة الطالبات في احتفالات بلدهن، أو تمنّي "الحظ السعيد" في دراستهن..

ما حدث هو شيء مأساوي وكان تماماً بهذا الشكل..

بينما كانت إحدى طالبات الإذاعة المدرسية تتلو تحية الصباح المعتادة تثاءبت إحدى فتيات المرشدات، فصاحت عليها المديرة أمام الجميع منبهةً بأن الطابور قد بدأ للتو، فإذا كانت خاملة منذ الصباح فكيف ستمضي باقي يومها؟!..

ثم اعتلت منصة العلم بعصبية، وأخذت المايكروفون من الإذاعة وسط نظرات الخوف والدهشة التي ملأت أعين كل رأس موجود!!

فصرخت بنبرة عالية قد لا يستطيع مغني الأوبرا أن يصل لها:

– "شنو هذا؟! ما فيه أي احترام للعلَم والمدرّسات؟.. ما شبعتوا نوم وخمول بالعطلة؟..

أنتو ما عندكم مسؤولية؟ ما تعرفون التزاماتكم وواجباتكم؟...."

كل صياحها ونباحها هذا بسبب تثاؤب طالبة واحدة!!..

ولم تكتفِ إلى هذا الحد من الصراخ، بل أخذت حوالي خمس دقائق تسأل أسئلة «فلسفية استفزازية» كهذه.. وبعدها يبدو أن أسئلتها انتهت أو أنها شعرت بالملل فأرادت تغيير الموضوع قائلةً:

– "وبعدين أنتو ما تعرفون كم مدة العطلة؟.. ليش الغياب استمر لأكثر من أسبوع؟!..

أنا استغربت أن قبل العيد الوطني بيومين المدرسة كلها فاضية!.. عسى ما شر، معقولة الديرة كلها مرضت بيوم واحد؟ وإلا من الكسل اللي فيكم تغيبون قبل العطلة وبعدها؟..

تدرون أن هالغياب راح يؤثر على المناهج وبالتالي يسبّب لكم ضيق الوقت وتتراكم عليكم الدروس؟!.. وبالنهاية أنتو الخسرانين!.. آنا مادري شلون أهلكم يسمحون لكم بالغياب هذا كله!..

سمعوني كلكم.. أنا كلّمت المدرّسات يسجلون اسم كل وحدة

ثم اعتلت منصة العلم بعصبية، وأخذت المايكروفون من الإذاعة وسط نظرات الخوف والدهشة التي ملأت أعين كل رأس موجود!!

فصرخت بنبرة عالية قد لا يستطيع مغني الأوبرا أن يصل لها:

– "شنو هذا؟! ما فيه أي احترام للعلَم والمدرّسات؟.. ما شبعتوا نوم وخمول بالعطلة؟..

أنتو ما عندكم مسؤولية؟ ما تعرفون التزاماتكم وواجباتكم؟...."

كل صياحها ونباحها هذا بسبب تثاؤب طالبة واحدة!!..

ولم تكتفِ إلى هذا الحد من الصراخ، بل أخذت حوالي خمس دقائق تسأل أسئلة «فلسفية استفزازية» كهذه.. وبعدها يبدو أن أسئلتها انتهت أو أنها شعرت بالملل فأرادت تغيير الموضوع قائلةً:

– "وبعدين أنتو ما تعرفون كم مدة العطلة؟.. ليش الغياب استمر لأكثر من أسبوع؟!..

أنا استغربت أن قبل العيد الوطني بيومين المدرسة كلها فاضية!.. عسى ما شر، معقولة الديرة كلها مرضت بيوم واحد؟ وإلا من الكسل اللي فيكم تغيبون قبل العطلة وبعدها؟..

تدرون أن هالغياب راح يؤثر على المناهج وبالتالي يسبّب لكم ضيق الوقت وتتراكم عليكم الدروس؟!.. وبالنهاية أنتو الخسرانين!.. آنا مادري شلون أهلكم يسمحون لكم بالغياب هذا كله!..

سمعوني كلكم.. أنا كلّمت المدرّسات يسجلون اسم كل وحدة

غايبة وينقصونها درجات، وراح ينطبق هذا القانون على الكل حسب اللائحة، وما راح نتساهل مع أي أحد، وحتى الأعذار الطبية راح نشدد عليها ومو أي عذر نقبله...".

ما إن أنهت المرأة – أو ربما الوحش المتكلم – جملتها السابقة حتى دارت الهمهمات والهمسات في أرجاء ساحة العلم.. فلو أنها ستحسب غياب كل طالبة كما قالت هذا يعني بأن الجميع دون استثناء سيأخذ إنذاراً واحداً على الأقل!.. لأن كل ثلاثة أيام غياب دون عذر يكون جزاؤها إنذاراً بحسب لائحة الغياب.

وبعد ذلك صرخت مجدداً لإسكات ثرثرة الطالبات وتحسرهن، وأخبرتهن بأن الندم لن ينفع وعلى كل واحدة منهن أن تبذل جهدها حتى تنجح، فالمناهج صعبة والامتحانات ستزداد صعوبةً والنجاح صعب على من تتغيب ولا تذاكر كل يوم..

يا له من تحفيز رائع ويقدّر مشاعرهن!

وبينما كانت تكمل خطابها الدكتاتوري العنيف، كان من الواضح أن كل طالبة تقريباً تكتم بداخلها القهر والغضب وتقذف عليها كل شتيمة تعرفها في داخلها!..

وبعد أن أخذت تثرثر حول اللائحة ووجوب تطبيق القانون وتلك الأمور التي لا يهتم بها أحد انتقلت إلى الحديث عن كثرة المخالفات في المدرسة والتصرفات اللاأخلاقية..

فتحدّثت أولاً عن ضرورة ارتداء الحجاب داخل الحرم المدرسي حتى لو لم يكن أي رجل موجوداً، وعلى جميع المعلّمات تسجيل اسم

أي طالبة تخالف ذلك وتسليمها شخصياً لها!..

وبرّرت أهمية ذلك في كونه مصلحة شخصية للطالبة، لأن من الممكن أن يضيع حجابها في أي لحظة وستكون في مأزق عندئذ...

وكأن الحجاب يمتلك جناحين ويطير بهما؟!!!..

وبعد أن انتهت من هذا الموضوع ساد الهدوء المكان بعض لحظات، فظنَّ الجميع أنها انتهت من كلامها وستسمح لفتيات الإذاعة إكمال موضوعهن، ولكن هيهات!.. يبدو أنها اختارت هذا اليوم للحديث عن كل شيء رأته أو سمعت عنه منذ أول يوم في المدرسة!..

فخاب ظن الجميع بقولها:

- "وثانياً، انا فيه موضوع وايد صبرت عنه..

كل يوم أقول حق نفسي أن هذي آخر مرة أشوف فيها هالشي لكن مع الأسف ألاقيه يزيد ويكبر كل يوم..

انا وايد لاحظت أن فيه أشياء مو زينة تصير بين الطالبات، مع الأسف كل يوم قاعدة أسمع عن رسايل حُب بين بعض الطالبات، ووحدة تكتب للثانية أشعار وخواطر.. خير إنشالله، عسى ما شر؟!.. انا ما أحب أستخدم هالكلمة بس مضطرة أقولها، أنتو تدرون أن التصرفات هذي شاذة وغير أخلاقية؟!.. اعذروني على هالكلمة بس هذا أقل وصف للي قاعدة أشوفه!..

عيب عليكم يا بنات، أنتو كبار وما فيه داعي أني أوقف بالطابور وأتكلم عن هالأشياء بينما من الممكن يوصل صوتي للشارع"..

قالت إحدى فتيات المرشدات في نفسها:

– يا لها من خرقاء!.. بالطبع صوتها قد وصل للشارع بعد حفلة الصراخ هذه!

بدا الأمر واضحاً هذه المرة أنها انتهت من كلامها، خصوصاً أنها تركت المايكروفون قليلاً ودارت وجهها لتهمس ببعض الكلمات لمعلّمة التربية البدنية.. مما يوحي أن نهاية كلامها قريبة.

لكنها فاجأت الجميع بقول:

– وثالثاً..

أوه، ثالثاً أيضاً!.. يبدو أنها اختارت موضوعاً لكل رقم، ومن سوء الحظ أن ليس للأرقام نهاية حتى الآن!!

– "فيه موضوع انا واید مستغربة منه...".

يا لها من كائن رقيق، كأن كل ما في الوجود يثير استغرابها!

صمتت قليلاً لتلتقط أنفاسها ثم أكملت الموضوع الذي أثار استغرابها وربما أثار استغراب (آينشتاين) أيضاً.. ألا وهو:

– "انا لاحظت أن بعض أهالي الطالبات لمن ياخذون بناتهم بنص الدوام ما يحضرون معاهم إثبات يدل على أنهم بالفعل أولياء الأمور..

رجاءً يا طالبات، إذا أي وحدة عندها موعد بمستشفى أو حالة خاصة وحضر ولي أمرها عشان يطلعها من الدوام ضروري يجيب ولي الأمر أي إثبات عشان نتأكد أنه بالفعل أبو أو أم هالطالبة..

احنا سبق أن سكتنا عن هالشي من قبل وسمحنا لبعضهم ياخذون بناتهم، بس الحين ما راح نسكت، وإذا أي ولي أمر ما حضر معاه إثبات فيؤسفني القول أن ما راح نسمح له ياخذ بنته..

أنتو أمانة برقبتنا وأحنا مسؤولين عن هذي الأمانة".

بعد ذلك بقليل انتهت من كلامها الذي استمر لحوالي ربع ساعة..

وماذا كان السبب مجدداً؟.. أوه، كل هذا بسبب تثاؤب فتاة واحدة!

إذن ربما من الأفضل على كل طالبة وضع قفل على فمها حتى لا تتثاءب ثم تصرخ تلك العجوز لربع يوم بدلاً من ربع الساعة!..

وبعد ذلك عادت فتاة الإذاعة تحية الصباح منذ البداية كأن شيئاً لم يحصل:

- تحية طيبة وعطرة...

فقالت في نفسها:

- أو وبما غبرة!

2

ازدحمت الممرات كعادتها انتظاراً للعاملة أن تأتي لتفتح أبواب الفصول المقفلة..

وفي هذه الأثناء قالت (وسمية) لـ(نور):

– "أوف، وأخيراً خلصنا منها!".. تقصد عن المديرة.

فقالت صديقتها:

– "اللي قاهرني أنها ضيّعت وقت الحصة الأولى وفوق كل هذا خلّتنا نسوّي تمارين الصباح!..

يعني أحنا شكو نتعذب ونسمعها طول الوقت وآخر شي تؤخّر الحصة وتتعبنا بهالتمارين اللي ما لها معنى؟!".

فردّت عليها الأخرى:

– "لا والمصيبة أن كل هذا عشان بنت وحدة تثاوبت!.. يعني بتصير جريمة لو تثاوبت البنت؟!".

في أثناء محادثتهما هذه فُتِحَ باب الفصل، وما إن حصل ذلك حتى دخلت (أسيل) مسرعةً بغضب.. فدفعت الفتاتين بحقيبتها الثقيلة كبيرة الحجم، وكتفيها العريضتين..

– "الحمدلله والشكر، شفيها هذي؟".. قالت (وسمية).

فأجابت الأخرى:

– "خلّيها البنت معصبة، مسكينة ما تتحمل توقف وايد"..

فأطلقت كل من الفتاتين ضحكة بصوتٍ عالٍ ثم دخلتا الفصل..

وبعد حوالي دقيقة وجدتا (سارة) متجمدة في مكانها وبيدها ورقة، بينما تسألها (هند) عن محتوى الورقة..

فأجابت (سارة):

– لا شيء، إنها فقط.. غير مهمة.

– دعيني أر..

أخذت منها صديقتها الورقة وقرأتها بصوتٍ مسموع..

"لو كانت هناك جائزة لأغبى شخص في العالم فلن يأخذها أحد سواك أيتها المتشردة ابنة السكير.. اشربي من كأس أبيك بصمت حتى ترحلي من هذا العالم ولا تعودي بعد ذلك!".

ثم انتهت الرسالة بكل شتيمة يمكن تصنيفها في قائمة 18+!..

تسمرت الفتاة في مكانها بحزن ولم تعرف ما يجب أن تفعل، وفجأة صرخت (هند) بعصبية:

– ما هذا؟؟ من وضع هذه الورقة هنا؟؟!

لم تمر ثانية على سؤالها حتى صاحت (فاطمة) من طرف الفصل:

– "جعل الماحي يمحي الغبية اللي حطّت هالورقة، منو هالغبية السخيفة المجنونة المخنزة.... (أخذت تشتم عدة شتائم بسرعة كما لو كانت تغنّي راب، وبعد ذلك أكملت سؤالها)... اللي حطّت هالورقة؟!".

ظنَّ الجميع أنها تتحدث عن الورقة التي وجدتها (سارة) في درج طاولتها، لكن اتّضح أنها هي الأخيرة وجدت رسالة أيضاً..

وبعد أن تجمّع حولها تقريباً نصف طالبات الفصل، قرأت على مسامعهن محتوى الورقة:

"أوه، ماذا لدينا هنا؟..

لم أرَ بحياتي فتاة بدينة وبنفس الوقت تلعب في فريق كرة السلة، هل هذه أعجوبة العالم الثامنة يا ناس؟!".

تلاقت الأعين في بعضها خوفاً ودهشةً، التفتت كل طالبة على الأخرى.. فالفصول كانت مغلقة وقد فُتِحَتْ للتو، إذن من عساها أن تكون قد وضعت الورقة؟ وكيف؟!

فتدخّلت (غزلان) قائلةً:

– لقد وجدتُ رسالة كهذه قبل العطلة.. وجدتها في حقيبتي، وكذلك (منيرة)..

فسألتها إحداهن عن محتواها، فأجابت:

– كانت سخيفة وغامضة، أعتقد أنها كانت تحذرني من فعل ما يسبب الندم أو شيئا من هذا القبيل..

سكتت قليلاً ثم قالت:

– أظن أن (منيرة) وضعتها، لأن قبل هذه الحادثة بفترة قليلة كنت أمزح معها وأخبرها بأنني لا أخاف شيئاً، فقالت أن لديها عدة وسائل لتخويفي وبأنها ممثلة بارعة!

فسألت (بدرية):

– وماذا كان محتوى رسالتها؟.. بالمناسبة، أين هي الآن؟

– إنها غائبة، وقد تكون تعمّدت الغياب حتى لا نشكك بها!..

ولا أتذكر نَص رسالتها بالتحديد، لكن من الواضح أن كاتبة الرسالة قد مدحتها وقالت بأنها صاحبة حظ لأنها ولدت في عائلة كهذه.

فصاحت (فاطمة) مرة أخرى:

– "طيب ليه تجي تسبني وتقول عني متينة؟؟.. وش سوّيت لها أنا؟!".

فأجابت الفتاة:

– لا تنسي أنني لست متأكدة بعد إذا كانت هي كاتبة الرسائل، لكن لو كانت هي من كتبت أول رسالتين فهناك احتمال بأن شخصاً آخر استغلَّ الفرصة وقام بكتابة الرسالتين هذه.. لكن لا أظن أن أحداً رآنا وعرف بأمر الورقتين اللتين وجدناهما..

لاحظت (هند) أن صديقتها حزنت وتكتم دموعها بداخلها، فقالت في نفسها:

– يا لها من مسكينة! إنها تعاني كثيراً في البيت والآن هؤلاء الحمقى يجرحونها برسائلهم السخيفة..

لماذا لا يملأ الحياة شيء سوى البؤس والحزن؟! أليس لهؤلاء قلوب؟!!

فربتت على كتفها وحاولت تهدئتها..

ثم دخلت المعلمة غاضبة لأنها تأخرت على الحصة وأخذت تصرخ على الطالبات لتفرغ عليهن طاقة غضبها!..

كاد اليوم الدراسي هذا أن ينتهي دون أخبار تُذكر لو لم يحصل هذا الموقف..

في نهاية اليوم الدراسي كانت أم (سارة) لديها مناوبة

في العمل.. أي أنها ستبقى في المدرسة حتى ذهاب جميع الطالبات..

وبينما كانت ابنتها معها سألتها:

– هل يمكنني أن أذهب لأعيد ملء قارورتي بالماء؟

فردّت والدتها ببرود كعادتها:

– سنذهب الآن، اشربي الماء في المنزل..

– أرجوكِ، سأذهب لأقرب مبردة..

تنهدّت المرأة وقالت دون أن تنظر لابنتها:

– بسرعة، سأنتظركِ في السيارة.

هرولت الفتاة ولم تتوقف قدماها حتى لمست المبردة التي كانت على بُعد خطوات قليلة، عندئذ رأت من بعيد سيارة بيضاء..

الرؤية غير واضحة تماماً، لا.. إنها غير واضحة أبداً!..

سيارة بيضاء، وشعر قصير!.. ما هذا؟ هل هذه فتاة تمشي؟.. يبدو أنها تتوجه للسيارة، صحيح؟.. أو أن السيارة تمشي باتجاهها..

رجل له لحية خفيفة قد فتح نافذة المقعد الأمامي، هل.. هل لمس يد الفتاة للتو؟..

ربما، لكن يبدو أنها تأخذ منه شيئاً ما، و..

- (سارة)!..

نادت الوالدة ابنتها ولوّحت بيدها..

وما إن ركبت الفتاة السيارة حتى نسيت كل ما رأته..

في اليوم التالي في حصة الكيمياء كانت (سارة) تضع يدها على خدها وكانت مستغرقة في التفكير العميق، وبدت عليها علامات الاكتئاب والشحوب كعادتها، لكن هذه المرة الأمر مختلفاً..

إذ هي نادراً ما تسرح في الحصص العلمية، وإن فعلت فلا يزداد سرحانها بعض لحظات.. لكن هذه المرة بدأ سرحانها منذ أول دقائق في الحصة ولم تنتبه لحرف ممّا تقول المعلّمة!

ولاحظت (هند) أن شيئاً ما يقلق صديقتها التي بجانبها، فكتبت في نهاية دفترها:

"أهناك خطب ما؟".

فمسكت الأخرى قلماً وكتبت بيد مضطربة:

"لا شيء، الدرس سخيف فحسب".

منذ متى (سارة) التي يمشي العلم في عروقها تقول عن درس الكيمياء سخيف؟!.. لا شك أن هناك ما تخفيه، هكذا فكرت صديقتها في نفسها، وأصرّت أن تعرف الأمر آجلاً أم عاجلاً.. لذا فكتبت في الدفتر:

"الفرصة الأولى ستبدأ بعد دقائق، يجب أن نتحدث فيها".

أومأت صديقتها رأسها بإيجاب وتظاهرت بقراءة الكتاب ووضع خطوط تحت بعض العبارات..

وفي هذه الأثناء كانت كلمة (مهزلة) هي أقل وصف لما يحدث في الفصل.. إذ ما أن تنطق المعلمة – التي كانت من إحدى الجنسيات العربية – اسماً لعنصر أو مركب كيميائي حتى ينفجر الجميع ضحكاً،

ليس فقط بسبب لهجتها المتكسرة، بل أيضاً لأن الطالبات كن يبحثن عن أي شيء يدعو للضحك أو التعليق أو أي شيء من شأنه أن يماطل في الحصة ويضيع الوقت!..

ولا تمضي دقيقة واحدة دون أن تتكلم فتاة مع الأخرى أو تقذف عليها شيئاً أو على الأقل تكتفي بالنظر إلى صديقاتها وتبدأ في التبسم والضحك بلا مبرر!..

وأما المعلمة المسكينة فلا حول لها ولا قوة.. فهي تجتهد بطباعة أوراق أسئلة للطالبات، وتقف في الفصل بينما العرق يتصبب منها وسط البرد القارس، وتعمل كل ما بوسعها من أجل مصلحتهن، وفي النهاية تحتار ولا تعرف إن كانت الأولوية لشرح الدرس أم لإسكات تلك الحمقاوات؟؟!

دقائق بعد أخرى، انتهت الحصة بعد طول انتظار.. وما أن رنَّ الجرس حتى خرجت الطالبات مسرعات متجاهلات ملاحظات المعلمة عن الواجب!

وما إن خرجت (سارة) مع صديقتها حتى قالت الأخيرة:

- هيا أخبريني، بم كنتِ تفكرين طوال الحصة؟..

لم يكن سؤال كهذا من النوع الاستفزازي أبداً، خصوصاً أن كل من الفتاتين تفهم الأخرى جيداً ولا أسرار بينهما.. ولطالما لجأت (سارة) إلى (هند) في كل أفراحها وأحزانها..

أما صديقتهما (شيخة) - والتي هي غائبة اليوم - فإن الأمر مختلف معها بعض الشيء.. فهي متخصصة في الكوميديا وإضحاك الآخرين، وتستطيع بسهولة أن تُضحِك شخصاً حزيناً، لكن من

العسير عليها أن تفهم مشاعره أو تساعده..

جلست (سارة) على الأرض وتنهدت بقوة قبل أن تجيب:

– لم أكن أفكر بشيءٍ محدد، أنا فقط.. متعبة!

فسألت (هند) مستفسرةً:

– هل تشاجر والداك مرة أخرى؟..

فأجابت (سارة) صارخةً:

– وهل هناك يوم لا يتشاجران به؟!..

ثم صمتت قليلاً فأكملت:

– كل ما في الأمر هو أن والدتي.. أشعر أنها... لا أعلم ما الكلمة التي يجب أن أستخدمها هنا، لكنها فقط تغيّرت كثيراً.. تبدو دائماً غير مستقرة وغاضبة، وعندما تغضب تكره الجميع دون استثناء!..

صمتت مرة أخرى لتلتقط أنفاسها ثم عادت لتقول:

– فقط أتمنى أن تهتم بي كما تهتم بعملها، في كل مرة أراها إما أن تكون تصحح أوراق الامتحانات أو تطبع أوراق أسئلة أو تحضر الدروس في دفترها.. دائماً تحاول أن تجهد نفسها بأي عمل حتى لا تقترب من أبي، وعلى الرغم من ذلك فإن شجاراتهما لا تتوقف أبداً!.. أما أنا، فلا عزاء لي، ربما حتى لو مت لن يعلم عني أحد!

كانت (هند) تلعن في نفسها هذا النوع من الأهل وتتساءل كيف ستمضي حياتها لو كانت مكان صديقتها، فقالت:

– أرجوكِ لا تقولي هذا، أنا لا يمكنني أن أقول شيئاً عن أبيك، ولا أستطيع أن أحكم عليه بشيء.. ولكنني متأكدة بأن والدتك تحبك،

ومن الواضح أن التدريس مهنة صعبة، لكن هذا لا يعني أنها ستبقى منشغلة عنكِ إلى الأبد، أليس كذلك؟

هزّت الفتاة رأسها نفياً فأجابت:

– إنكِ لا تفهمين.. هي ليست منشغلة عني فحسب، من الواضح أن ليس لديها أي اهتمام بي!.. أحياناً أجلس في غرفتي لعدة ساعات ولا تعلم حتى إن كنت في المنزل أم لا!.. وأراهن على أنها تعرف بأنني لست على ما يرام لكنها لا تلتفت لي أبداً، لا أعلم لماذا تكرهني لهذا الحد؟!..

مسحت دمعة تسللت من عينها، ثم بحثت (هند) عن شيء تقوله فأجابت بعد طول انتظار:

– لا يمكنني أن أتصور ذلك، لا أعتقد أن من الممكن للأم أن تكره أبناءها، ربما قد تغضب عليهم أو تصرخ، ولكن مهما حصل فهناك عاطفة شديدة بينهم و...

فقالت (سارة) مقاطعة صديقتها:

– كفاكِ هراءً أرجوك!.. قلتُ لك مئة مرة ألّا تتكلمي كما في المسلسلات السخيفة التي تتابعينها يومياً.

– ما أقوله ليس له علاقة بما أشاهده، هذه الحقيقة.. فالأبناء ما هم إلا جزء من الأمهات، وحُب الأم هو فطري..

قالت ذلك كما لو كانت تصرُّ على رأيها، فهي من الفئة التي تتمسك بشدة بآرائها وتقدّس أي شيء تؤمن به!..

فقالت (سارة) بنبرة مختلطة بين البكاء والغضب:

– هل تعلمين ما حدث هذا الصباح؟.. كنت على وشك أن أتناول فطوري وأخبرتني أن لا وقت للطعام لأننا يجب أن نذهب، فأكلت في

السيارة وأذكر أن المقعد اتسخ قليلاً، وبعد أن وصلنا سألتني بكل غباء إذا كنت قد أكلت أم لا!..

هل يوحي لك هذا الأمر بالحُب؟.. لا أظن! إنها بالكاد تعلم أنني مازلت على قيد الحياة!

تنهدت (هند) فقالت:

– لا أعلم لماذا تبالغين كثيراً وتعطين الأمور حجماً أكبر ممّا تستحقه!.. انظري للجانب الإيجابي، على الأقل أنها سألتكِ، أليس هذا ما تريدينه؟

– نعم، ولكن ليس بهذه الطريقة الخرقاء!..

صمتت قليلاً ثم قالت بينما تنظر للأسفل:

– لا أعلم لماذا.. أشعر أحياناً بأنني أكرهها!

سألت (هند) بدهشة:

– تكرهين والدتكِ؟!.. أرجوكِ لا تفكري بشيءٍ كهذا مجدداً، أرجوك!.. أنتِ تعلمين كم أن الأم نعمة عظيمة وهناك الملايين يتمنون وجودها حولهم حتى وإن كانت مجرد صورة معلقة على الجدار!.. نحن الأوفر حظّاً طالما أن لدينا أماً، فالحمدلله على هذه النعمة العظيمة.

رأت (سارة) أن هذه الفرصة المثالية لإقفال هذا الموضوع الذي بدأ بشكل خاطئ، فأجبرت نفسها على قول:

– الحمدلله..

ظلّت الفتاتان تتحدثان لبعض لحظات ثم ذهبت (هند) لشراء قارورتي مياه من مقصف المدرسة المزدحم، وما إن خرجت من

«الازدحام العظيم» حتى رنَّ الجرس مباشرةً، فشربت الماء -بصحبة صديقتها - بينما كانت تمشي في طريقها للفصل..

وما إن دخلت الفتاتان الفصل حتى وجدتا الصراخ قد ملأ المكان وقد تجمعت الطالبات في منتصف الفصل بشكلٍ فوضوي، وبعد ثوانٍ اتضح أن السبب هو موضوع الرسائل المجهولة مجدداً..

صاحت (مريم):

- من عساها تكون صاحبة هذه الرسائل السخيفة وماذا تريد؟.. أرجوكن توقفن عن المقالب الثقيلة وتقليد الأفلام الفاشلة!..

دخلت (لولوة) بينما كانت الفتاة تصرخ فاستفسرت عن سبب صراخها، ثم أجابت:

- أظن أنكِ عرفتِ عن أمر الرسائل الغريبة، أليس كذلك؟... انظري.

فأعطتها الورقة التي قد وجدتها في حقيبتها، ثم قرأتها (لولوة) بصوتٍ عالٍ:

"أعلم أنكِ تحضرين معكِ أحمر الشفاه كل يوم، وأحب أن أحذرك بأن لا أحداً يخبئ أشياء كهذه في الحقيبة إلا الأحمق!".

اتّسعت عينا الفتاة دهشةً بعد قراءتها لهذه الكلمات، وزادت (مريم) استغرابها حينما قالت:

"الذي يقلقني ليس محتوى الرسالة نفسه، بل أن من وضعها قد فتح حقيبتي وأيضاً كان قد فتحها سابقاً، وإلا لما عرف بشأن أحمر الشفاه الذي بداخلها!..

فسألت إحدى الفتيات:

- وهل أنتِ تحضرينه معكِ فعلاً؟!.

– هذا ليس من شأنكِ يا (وضحة)، انصرفي..

وسرعان ما صاحت (نور) قائلةً:

– سحقاً!.. انظرن، أنا أيضاً وجدت رسالة في حقيبتي!..

ففتحت الورقة وقرأتها على الطالبات اللاتي كن جميعهن بلا استثناء قد التفتن إليها:

"أعلم أنكِ كسرتِ أحد مفاتيح آلة البيانو عندما دخلت غرفة الموسيقى خلسةَ أمس، من الأفضل أن تسجدي شكراً لله لأنني لم أقل لأحد.. احترسي يا عاشقة (موتسارت) العجوز!".

وسرعان ما صاحت بعد أن انتهت من القراءة:

– ما هذا الغباء؟.. أنا أعترف حقاً بأنني كسرت المفتاح عن طريق الخطأ، وكدت أخبر المعلمة لو لم يكن القسم خالياً..

والتي كتبت هذه الورقة هي من أغبى الأشخاص في العالم، لأن الموسيقار (موتسارت) مات في شبابه والجميع يعلم هذا، وأنا في الأصل لا أحبذه ولا أعرف أيا من أعماله!

فأطلقت (أسيل) ضحكة عالية قبل أن تقول بصوتها الذي هزَّ أرجاء المكان:

– وهل هذا ما أثار اهتمامك؟.. تركتِ محتوى الرسالة ولم تعلّقي إلا على عمر الموسيقار.. أنتِ كمن الذي أشير له إلى القمر فينظر إلى أصبعي!

فأعقبت عبارتها بضحكاتٍ عالية كما لو كانت تجبر نفسها على الضحك لأنها تعلم أن ذلك يثير غيظ زميلتها..

وأما (نور) فلم تجبها بشيءٍ واكتفت بالتحديق إليها من طرف عينيها بينما تتساءل في داخلها عن مدى احتمالية أن تكون (أسيل)

هي صاحبة الرسائل..

وبعد ذلك التفتت (غزلان) وقالت لـ (منيرة):

– أمازلتِ لا تريدين الاعتراف بعد؟..

فصرخت الفتاة وقالت غاضبةً:

– يا إلهي!.. سبق أن قلت لكِ مراراً وتكراراً بأنني لا أعلم شيئاً عن هذه الرسائل اللعينة، لقد كنت معك طوال اليوم ولك الحرية في أن تصدقي أم لا!

ثم ابتعدت عن الطالبات اللاتي كن مجتمعات كخلية النحل بينما كن يحدقن إليها بطريقة غريبة..

وعندما كانت المعلمة بالقرب من الباب سألت إحدى الطالبات إن كان من الأفضل أن تخبر المعلمة بشأن الرسائل، ولكن نصحتها (أمل) بأن ما من داعٍ لذلك.. فالرسائل سخيفة ويبدو أنها مجرد مزحة من إحداهن، وإن لَم يتم الكشف عنها اليوم سيُكشف عنها غداً.

1

في الأيام القليلة التالية ازدادت الرسائل المجهولة حدةً ووقاحة، إذ أصبحت مواضيعها إلقاء الشائعات والحديث حول مشاكل الطالبات..

كما قامت بـ"فضح" كل أسرارهن تقريباً واتهامهن بأمور لا يعلم بمدى صحتها أحد، مما يوحي أنها ليست مجرد مزحة كما اعتقدن!

وربما كانت الرسالة الوحيدة التي ليست لها علاقة بالأسرار هي تلك التي تلقتها (وسمية) قبل فترة قصيرة، وكانت الرسالة تخبرها بأسلوب وقح – مع شتائم بالطبع – بأنها عديمة الجدوى ولا تستحق أن تكون موجودة في الحياة، وأن أفضل شيء تقوم به لخدمة المجتمع هو أن تلقي نفسها من أعلى نافذة وتسقط داخل فم قطة حتى لا تلوث الأرض!!

ولقد تلقت (وضحة) رسالة يختلف موضوعها عن سابقتها، إلا أن الشتائم فيها كانت هي العامل المشترك بين الرسالتين.. وكان نصها:

"أحذرك من فعل أي حماقات، فإنني أعرف الكثير مما تفعلين.. أعلم أنك قمت بتخزين صور لبعض الممثلين في أحد حواسيب المدرسة لتوريط إحدى الطالبات، وأنك من قام بتدمير سيارة معلمة التربية البدنية، وأعرف المزيد والمزيد من الأسرار عنك، وما كتبته هنا مجرد عينة بسيطة من مشاكلك التي لن تنتهي!

لذا أنصحكِ أن تلتزمي الصمت لو رأيتِ أو سمعتِ ما لا يعجبك".

ثم انتهت الرسالة بهذا الشكل القذر:

"أيتها الـ*** ، و***، *****".

وامتلأ الجزء الأخير من الورقة بالشتائم والطلاسم التي لو أحصيناها لامتلأت الصفحة بالنجوم السوداء!

وبالطبع أثارت هذه الرسالة الغضب والجدل، ولم تترك الفتاة طالبة في الفصل إلا وشككت بها بأنها وضعت الرسالة..

والمثير للدهشة أن تلك الحوادث قد حدثت بالفعل، ولقد مرَّ عليها فترة لا بأس بها من الزمن، ولكن لماذا تظهر تلك المجهولة وتذكرها بالرسائل بعد أن أصبحت قديمة بعض الشيء؟!..

هذا ما تساءلت عنه إحدى الطالبات وسط صراخ الفتاة وإصرارها على أنها لا تعرف شيئاً عن تلك الحوادث!

وأقسمت كل من (فاطمة) و(بدرية) أن صديقتهما تبقى معهما طوال الوقت، أو على الأقل تكون مع إحداهما.. وأقوالهما تلك ليست للدفاع عنها، بل لأن هذه الحقيقة، فالجميع يعلم بأن تلك الفتيات بمثابة ثلاثة توائم ملتصقة لا تفترق!

وأيضاً تلقت (دانة) رسالة ذات محتوى جريء، إذ إنها لم تكتفِ بالشتم واللعن في البداية والخاتمة فحسب، بل أيضاً اتهمتها الكاتبة بأنها تدخن السجائر حوالي علبتين في الأسبوع وأنها مدمنة عليها!!..

وبالطبع لا يوجد أي دليل لتأكيد ذلك أو نفيه، ولكن أنكرت الفتاة ذلك بقوة وقالت إحدى الطالبات أن شيئاً كهذا لا يعتبر "فضيحة"..

ففي النهاية التدخين يعود لأخلاق الفتاة – والولد أيضاً – وتربيتهما والبيئة التي ولدا بها..

وفي الواقع، لم يهتم أحد حول ما إذا كانت الفتاة تدخن بالفعل أم لا.. فكل واحدة كانت خائفة على نفسها من تلك الرسائل وقلقة بشأن أسرارها الشخصية التي أصبحت تُفشى على الملأ دون رقابة!..

ففي الآونة الأخيرة أصبحت الأوراق البيضاء من نوع A4 بمثابة مصدراً للرعب بالنسبة للطالبات، حيث ما إن وجدت إحداهن ورقة بيد الأخرى إلا واقتربت منها لتعرف محتواها.. ولقد علّقت (أسيل) ذات مرة قائلةً بأن الجميع بدأ يصاب بفوبيا من الأوراق وأن مستشفى الطب النفسي هو المكان الصحيح الذي تحتاج أن تكون به الطالبات..

ثم سخرت مجدداً وقالت بأن المستشفى فيه أوراق أيضاً، لذا فمن الأفضل أن تنتحر كل واحدة منهن تجنباً للجنون! وبعد ذلك ضحكت بالطريقة المعتادة لتثير غيظهن..

ومرة أخرى زادت الشكوك حولها، خصوصاً أنها لم تتلق أي رسالة أبداً، وأنها ما إن رأت الفتيات قلقات بشأن الرسائل إلا وانفجرت ضحكاً عليهن..

فقالت (لطيفة) ذات مرة بأن لديها دليلا يثبت أن (أسيل) هي صاحبة الرسائل، ودليلها هو أن (منيرة) وصديقتها وجدتا أول رسالتين.. ولو يفكر أي أحد بشأن (أسيل) سيجد أنها كانت تحاول

التقرب من تلك الفتاتين منذ بداية الفصل الدراسي الثاني، وعندما فشلت خطتها ولم تجد من يساعدها على الغش قامت بالانتقام بهذه الطريقة!..

ولكن صديقتها (أمل) لم تؤيدها بذلك، فقالت لن يمكننا الشك بأي فتاة خصوصاً أنه لا توجد دلائل واضحة تشير لاتهام شخص محدد.. فتلك الرسائل تُوضع في الفرصة بعد أن يتم إقفال الفصول، فالتي تضعها لا تحرص على ألا يراها أحد فحسب، بل أيضاً ألا يلاحظ غيابها أحد مع الحرص الشديد بأن تتسلل بخفة وتضع الرسالة وتخرج.. وهذا صعب جداً أن تكون فتاة واحدة هي الفاعلة، لذا فقد تكون هناك عدة فتيات مشتركات معاً، أو أن الفاعلة هي ليست من طالبات هذا الفصل..

وفكرت طويلاً ثم رأت أن صديقتها على حق بشأن الفتاتين وانتقام (أسيل) منهما، ولكن لا يوجد مبرر أن تطلق الشائعات وتفضح كل فتاة في الفصل تقريباً!

ثم تساءلت (لطيفة) عن كيف يتم فتح باب الفصل بعد إقفاله؟ ومن أين لصاحبة تلك الرسائل المفتاح؟

وأجابت صديقتها بأنها لا تعلم، ولكن كل ما تعلمه بأن تلك المجهولة سيتم القبض عليها بالجرم المشهود قريباً!

فقالت الأخيرة:

– أتمنى ذلك، فكل واحدة منا على وشك أن تفقد عقلها بسبب رسائل الموت!

2

بعد نهاية الفرصة الأولى..

دخلت (وضحة) الفصل بينما ترفع طرف ثوبها بيدها وتلف حجابها كما يرتدي الرجال العمامة!..

ثم سألت إحدى الفتيات ما إذا كانت معلمة الفيزياء غائبة، وعندما أجابتها بالنفي تنهدت فصاحت:

- "أووووف! ويع! يا كثر ما أكره ذي الزومبي!!.. لا هي ولا مادتها أتحملهم".

فصاحت عليها (بدرية):

- "تعالي اقعدي لا تطوفچ القهوة"..

كانت الفتاة قد أحضرت معها قارورة كبيرة من القهوة العربية مع بعض الحلوى، وجلست مع صديقاتها في الأرض كما لو كانت تفترش المكان للبيع!..

ووسط هذه الفوضى والإزعاج ورائحة الفصل التي لا تساعد على التنفس أبداً، كانت (أماني) تجلس في مقعدها وتكاد تكون أكثر هدوءاً من الحائط..

أخذت تفكر في عدة أمور في آنٍ واحد، ومن بينها: علاماتها في الامتحانات، اللعبة التي اعتادت على التسلية بها في هاتفها، السيارة

البيضاء التي رأتها أمس...

وفجأة قطع حبل أفكارها اقتراب (سارة) منها، إذ كانت على وشك أن تطلب منها قلماً، ولكن أبعدتها إحداهن وسألت الفتاة:

– هيه، هل كتبتِ الواجب؟

ما كادت (أماني) أن تفتح فمها حتى قالت (سارة) بعنف:

– ابتعدي عنها يا (دانة)، إن كنتِ لا تريدين المعلمة أن تعاقبك فاكتبيه بنفسك..

فردت الأخرى بنبرة أعلى:

– أنا لم أسألكِ أنت، ولا شأن لكِ بيننا.. وفقط لتعلمي، أنا كتبت الواجب بالفعل ولكن أردت التأكد من صحة الحل.

ثم أدارت ظهرها للفتاتين وابتعدت مع حرصها على أن ترمقهما من طرف عينيها لغاية وصولها لمقعدها.

ولم تمضِ ثانية حتى صاحت (شهد):

– ما هذا بحق الجحيم؟! لقد كنت غائبة طوال الفترة السابقة والآن أجد ورقة سخيفة كهذه!!

بالطبع الأمر لا يحتاج إلى ذرة ذكاء واحدة حتى يعرف الجميع بأنها تلقت واحدة من الرسائل المجهولة..

التفتت جميع الأنظار إليها، نهضت (بدرية) "وعصابتها" من

الأرض وسكبت إحداهن بعض القهوة خطأً، ثم اقترب الجميع من الفتاة حتى أضاقوا عليها الهواء.. فقرأت عليهن الورقة:

"قريباً سوف تحدث الحادثة، وتقع الواقعة.. وعندئذ سيظهر كل شيء كالشمس الساطعة!".

بدا الفصل مضحكاً للوهلة، وكادت الفتيات أن يضحكن على حالهن لولا الموقف المرعب الذي هن فيه.. إذ انتشرت رائحة الخوف في المكان وأخذت كل عين تحدق بالأخرى في صمت، ثم قطعت (نور) هذا الصمت بسؤالها:

- ما الذي تعنيه هذه الكلمات؟

- لا أعرف، لكن يبدو أنها تخطط لشيءٍ ما!

قالتها (شهد) فيما تحدق للورقة وتملأها علامات التعجب والدهشة..

وسرعان ما صاحت (أسيل) بصوتها الخشن:

- "بنااات، الوكيلة بالممر!!".

فزعت القلوب وتسمرت الوجوه، ثم ركضت كل طالبة إلى مقعدها وخبأت (بدرية) القهوة فيما تمسح صديقتاها الأرض.

وللوهلة، بدا الأمر كما لو أن هناك مشهدا تمثيليا لمعركة في الصحراء تجسده الطالبات!..

كاد الجميع يبقى صامتاً في الثواني القليلة التي تشق فيها المعلمة طريقها للفصل، لو لم تصرخ (لولوة) بعنف:

– هذا يكفي، لا مزيد من الأوراق القذرة أرجوكن..

ثم أكملت صراخها بينما توجه نظرها لكل واحدة من الفتيات:

– أياً كانت تلك الغبية التي تزعجنا آمرها أن تكشف نفسها أمامنا حالاً!

جمدت كل واحدة في مكانها بينما تحدق في الفتاة باستغراب، فقالت (أمل) بهدوء:

– عزيزتي، أنت تعلمين أنها لن تكشف عن نفسها بهذه الطريقة.. فلنفترض أنك تزعجين أحدهم برسائل مجهولة، هل ستقومين بالاعتراف هكذا؟!

فصاحت الفتاة بهستيريا:

– إذن أنت تقولين أنني وضعت هذا الرسائل؟! أي نوع من الغباء الذي تعانين منه؟..

قاطعتها الأخرى قائلةً ببطء:

– اهدئي أرجوك، أنا فقط افترضت ذلك.. فأنت أمرتها بالكشف عن نفسها وأنا قلت أن هذا غير ممكن..

وسرعان ما قالت (لولوة) بغضب:

– إذن أنت من وضعت الرسائل! اعترفي، اعترفي قبل أن أفضحك بنفسي..

– أنا لم أضع شيئاً يا عزيزتي، فكيف أعترف على ذنب لم أقترفه؟

تجاهلتها الأخرى ثم أخذت تنظر للجميع فيما تقول:

– مَن منكن وضعت هذه الورقة في حقيبتي؟!.. هيا اعترفن!

ساد الصمت في الفصل كما لو لم تكن الفتاة تتكلم، وفجأة دخلت المعلمة ووجدتها تقف في المنتصف، ومن سوء الحظ أنها كانت –أي المعلمة – في إحدى لحظات غضبها، فصاحت:

– لِمَ كل هذا الصراخ والفوضى؟! ألم أقل لكن مراراً وتكراراً بأن تبقن هادئات حتى مجيئي؟؟

ثم التفتت نحو (لولوة) وأكملت صراخها:

– وأنت.. ماذا تفعلين هنا؟

– لـ... لا شيء!

– ما هذه الورقة التي في يدك؟

أجابت الفتاة بتلعثم:

– لا أعلم، وجدتها هنا..

سحبت المعلمة الورقة منها، فوجدت عليها هذه الكلمات:

"أعلم أنك غششت في امتحان الفيزياء بطريقة احترافية، ولكنني لست بغبية يا (لولوة).. كشفتك بسهولة دون أن تعلمي، ليس لغبائك

بل بسبب ذكائي أنا.. واعلمي أنني أستطيع أن ألقي بك في مأزق دون أن تعرفي من أنا، ولا شك أنك تعلمين ما أقصد..
أليس كذلك؟".

رمقت المعلمة الفتاة بهدوء ثم صرخت:

– ما هذه الورقة؟؟..

وقبل أن تقل الأخرى شيئاً سرعان ما صاحت المرأة:

– هل بالفعل غششت أم لا؟

ازدردت الفتاة لعابها فأجابت بتوتر:

– لا، هذه الورقة كاذبة.. أنا لم أغش... تلك الأوراق تستمر في إلقاء الشائعات علينا و...

قاطعتها المرأة صارخةً بنبرة أعلى من سابقتها:

– (لولوة)! لا تكذبي، أنا أعرف مستواك جيداً ومن غير المعتاد أن تأخذي علامة شبه كاملة في أي امتحان.. وأعلم أنك سيئة في حفظ القوانين..

– صدقيني لم أغش، أنا درست جيداً..

قاطعتها المعلمة مرة أخرى فقالت:

– لو فعلاً درست إذن أجيبي على سؤالي: ما هو انعكاس الضوء؟

ترددت الفتاة ثم أجابت:

– أ.. هو أن.. أن ينعكس الضوء على...

صاحت المعلمة فجأة:

– خطأ!.. هو تغيير مسار الشعاع الضوئي في الوسط نفسه، لقد أجبت على هذا السؤال بشكل صحيح في الامتحان وكتبت التعريف حرفياً، وهذا يثبت غشك!

– ولكن..

قالت المرأة بانتصار:

– كنت أشك بالبداية أن علامتك لم تأخذيها بسبب جهدك، والآن تأكدت.. اذهبي عند المديرة حالاً وأخبريها وإلا سأخبرها بنفسي، وسوف أقوم بإلغاء علامتك وأحرمك من امتحان نهاية الفصل!..

تسللت دمعة من عين الفتاة فقالت:

– أرجوك لا تفعلي، فأنا..

ضربت المعلمة دفتر تحضيرها على الطاولة فقالت صارخةً:

– هل أنت صماء؟! قلت لك اذهبي للمديرة الآن!..

تكاثرت الدموع في عينيّ الفتاة وسارت نحو الباب في خطوات مرتعشة فيما تلعن بداخلها صاحبة تلك الرسائل.. وكانت تقول في نفسها بأنها لن تتركها وشأنها وأن قريباً سيأتي اليوم الذي تنتقم فيه!

3

أخذت (أماني) تحدق في شاشة هاتفها بحثاً عن برامج تساعد في كسر الملل..

إنها العطلة الأسبوعية، مما يعني أنها لن تدرس الآن، ولقد استنفدت جميع "أرواحها" في اللعبة التي كانت تتسلى بها قبل قليل.. والآن عليها الانتظار ساعة واحدة على الأقل حتى تحصل على روح جديدة..

كم تكره هذا النظام الممل!.. سبق لها أن فكرت بشأن مراسلة تطبيق اللعبة لتقترح عليهم تعديله أو زيادة عدد الأرواح بأي طريقة، ولكن بالطبع لن يقوموا بذلك فقط لأن صاحبة السمو اقترحت عليهم!

وجدت نفسها لا شعورياً تفتح تطبيق (الواتساب)..

أخذت تحدق في الشاشة بعض ثوانٍ وفجأة جاءتها رسالة:

– السلام عليكم.

تفاجأت لوهلةٍ فيما أخذت تتفحص الرقم الذي كان غير مسجل.. كان حدسها يخبرها بأن المرسل قد يكون مخطئاً، وإلا من الذي يملك وقتاً زائداً عن حاجته ليرسل لها؟!

كادت أن ترد السلام، ولكن سبقها المرسل:

– أنا (سارة) زميلتك في الفصل، أرجو أن تكوني بخير.

تسمّرت الفتاة لثانية أو اثنتين، ثم رسمت ابتسامة واسعة كادت تصل لأذنيها!..

فلطالما كانت نكرة ولا يعلم بوجودها أحد، والآن تأتي الفتاة الوحيدة – تقريباً – التي لا تسخر منها لتراسلها فجأة.. لا شك أنه يوم الحظ السعيد!

حاولت إخفاء سعادتها الغامرة حتى لا تثرثر كثيراً في الكتابة ومن ثم تناقض طبيعتها الصامتة..

فكتبت:

– وعليكم السلام، أنا بخير.. شكراً لك.

ثم أرسلت ثلاثة وجوه مبتسمة تعبيراً عن سعادتها التي كانت بحجم كوكب الأرض!..

فأرسلت (سارة):

– أنا سعيدة لأنك بخير، أرجو ألا أكون قد أزعجتك.

– لا أبداً، أنا لست منزعجة منك.. وبالمناسبة، أشكرك على ما فعلته اليوم عندما أبعدت (دانة) عني.

ابتسمت الأخرى من خلف الشاشة فردت:

– العفو، هذا تماماً ما أردت التحدث إليك بشأنه..

أعلم أنها تضايقك بشدة، أو على الأقل أشعر بذلك.. وأنا في غاية

الأسف لأنني لم أفعل شيئاً منذ البداية.

فكتبت (أماني):

– لا عليك.. لقد كانت دائماً تزعجني وأحياناً تتصل بي في منتصف الليل من أجل أن أخبرها بمواعيد الامتحانات!.. لا أعلم لِمَ لا تسأل شخصاً آخر.. ولكني حقاً أشكرك جزيلاً، فلولا تدخلك لكانت الآن تثرثر معي في الهاتف وتجبرني على التحدث معها!

مرّت بعض الثواني دون أن تكتب أي من الفتاتين شيئاً، ثم أرسلت (سارة) وجهاً ضاحكاً وفي عينيه قلوب حمراء، وكتبت:

– لا تقلقي، لو أرادت التقرب منك مجدداً فقط أخبريني بأي وقت، وسأجعلها تندم بشدة..

– هل ستضربينها؟..

– لا، لدي بعض الطرق الخاصة..

بعد ذلك أرسلت (سارة) مازحةً:

– في الواقع، أنا الفتاة العنكبوتية..

ثم ضحكت الفتاتان ووضعت كل منهما وجوهاً تعبيرية للضحك..

ثم سألت (أماني) محاولةً تغيير مسار الحديث:

– هل فعلاً قامت معلمة الفيزياء بحرمان (لولوة) من دخول الامتحان النهائي؟

– سمعت أنها تراجعت عن ذلك كون أنها لم تكتشفها متلبسةً بالغش، ولكنها قررت إلغاء علامات أعمال الفصل وسوف تختبرها مرة أخرى في أسئلة أكثر صعوبةً..

– أوه! يا لها من مسكينة!..

– أرى أنها تستحق ذلك، فلم يكن من المفترض أن تغش.

تعجبت (أماني) لرد فعل زميلتها البارد، فلطالما رأتها ذات قلب حنون وتتعاطف مع الآخرين، ولم يسبق أبداً أن عرفت عنها تصرفاً كهذا!!

فكتبت محاولةً تأكيد صحة رأيها:

– صحيح.. لم يكن من المفترض أن تغش، ولكن لو لم تضع تلك المجهولة الرسالة لما رأتها المعلمة ولما حصل كل هذا..

أجابت الأخرى بعد تردد:

– معك حق، أظن أن صاحبة الرسائل هي المخطئة.. فلم يكن من المفترض أن تؤذينا..

وما إن أرسلت (سارة) جملتها السابقة حتى سارعت بتغيير الموضوع فجأة:

– هل يمكنني أن أسألك شيئاً؟

فأجابت (أماني) فيما يحاول عقلها تخمين السؤال:

– بالطبع، تفضلي..

– أعتذر على حساسية السؤال، ولكن لم أستطع أمنع نفسي من التفكير بهذا الشأن..

كنت فقط أتساءل لماذا لا تذهبين لطبيب مختص في التخاطب؟.. سمعت وقرأت عن الكثير من الحالات التي شفيت بشكل نهائي..

وأكرر اعتذاري لك، أرجو أن لم أطرح سؤالي بشكل جارح..

حاولت الفتاة تجاهل الاعتذار، فأمر كهذا لا يجرحها فقط بل يقتلها!..

فأجابت:

– سبق أن راجعت الطبيب، ولكن لم ينجح معي العلاج، ليس كل الأشخاص يستجيبون له..

فكتبت الأخرى بحزن:

– أوه! أنا حقاً متأسفة.. فقط كنت أحاول أن أقدم لك المساعدة..

– لا عليك.

مسحت (أماني) دمعة تسللت من عينها ثم كتبت:

– أظن أنك تتساءلين عن السبب، أليس كذلك؟.. أقصد سبب مشكلتي في النطق.

فأجابت (سارة):

– أعتقد أنه بسبب وفاة والدك أمامك في حادث سيارة حسب ما سمعت، صحيح؟..

– لا.. لا أعلم من الذي قام بتأليف هذه الأكذوبة عني ونشرها، ولكن والدي لم يمت أمامي..

في الواقع لقد كانت هناك الكثير من المشاكل بينه وبين والدتي، لذا لم أعاشره كثيراً..

توقفت الفتاة عن الكتابة قليلاً ثم أكملت:

– أمضيت معظم طفولتي بين يديّ امرأة ساخطة على زوجها وكارهةً للعالم، ولا أريد أن أضعك في أجواء مسلسل درامي يصف التربية القاسية التي كنت أتلقاها من أب يكاد لا يعرف اسمي و"امرأة" متوحشة تتمنى الموت للجميع دون استثناء!..

ولعل وفاة أبي كان أسعد خبر تلقته والدتي في حياتها، ولكن جن جنونها عندما علمت بأنها حامل بطفل آخر وهو أخي ذو الأربعة أعوام..

كادت تقتله عدة مرات، خصوصاً أنه يشبهه كثيراً.. ربما لولا جدتي لكانت قد قتلته فعلاً!..

توقفت الفتاة عن الكتابة لبعض ثوان، ثم أكملت بعد أن غرق وجهها بالدموع:

– وعندما كبرت قليلاً علمت بأنني لن أعيش حياة "طبيعية" كبقية الناس.. إذ حُرمت من طفولتي التي لا أتذكر منها سوى الضرب

والإهانات، وأشعر أنني مجبرة على مناداة تلك المرأة بـ "أمي"... فكائن مثلها لا يستحق أن يكون إنسانا حتى!..

وبعد ولادة أخي الصغير ألقته في حضني بينما لم يتعدَّ عمري حينها الثانية عشر!..

كم أشفق على هذا الطفل المسكين، أخشى على مستقبله بين أيديها!..

قرأت (سارة) تلك الكلمات أكثر من مرة بينما تتراقص الدموع في عينيها، وعندئذ أدركت الجانب الثاني من (أماني) وشعرت بمعاناتها.. فلطالما اعتقدت أنها أكثر الناس بؤساً في العالم وأن لا أحداً يشعر بمشاكلها، ولكنها علمت للتو أن نظرتها في الحياة ضيقة.. وأنها ستتغير لو فقط أعطت الأمور حجمها وحده الذي تستحقها..

ثم وجدت نفسها تكتب بعد صمت طويل:

– يا إلهي! كل هذا يحدث في نفس الكوكب الذي يشرب فيه بعضهم الخمور ويحتفل في منتصف الليل!!

– أنا آسفة، ربما لم يجب أن أخبرك بكل هذا.. لا أستطيع أن أسيطر على مشاعري في الكتابة.

فكتبت (سارة) متفهمةً:

– أظن أنني من يجب أن يعتذر، وليس أنت..

أعرف شعورك جيداً، ربما من السهل أن تعيشي مع أحد الوالدين ولكن الحياة تكون جحيماً في حال لو قسا عليك أحدهما..

أيدت الفتاة زميلتها بما قالته..

وبعد ذلك بدأت كل واحدة منهما تنسى الحزن تدريجياً، وتحدثتا معاً لساعات..

وفي نهاية حديثهما دعت (سارة) زميلتها إلى أن تلتقي معها في الفرصة وأن تتعرف على صديقتيها، وما كان من الأخيرة إلا أن قفزت فرحاً لدرجة أنها كتبت أبياتاً شعرية عن ذلك!

1

بعد نهاية عطلة الأسبوع، في صباح يوم الأحد..

كانت كل من (سـارة) ووالدتها تتأهب من أجل الذهاب للمدرسة بعد قليل.. فكانت الأخيرة تقوم بترتيب أشيائها بينما الفتاة تأكل فطورها.

ووسط هذا الصمت الثقيل كانت (سارة) تتذكر ومضات عشوائية من حلمها..

في الواقع، لم يكن حلمها مرتباً أبداً، بل كان عبارة عن صور وأصوات تسمعها..

تذكرت أنها رأت دخاناً كثيفاً يغطي كل شيء تقريباً، وكان هناك من يناديها ويصرخ باسمها، ثم كانت هناك أصوات همس.. ترى ماذا كانت تقول؟..

ولقد حدث شيء أزال كل هذا الدخان.. لكن لا تذكر ما هو، فالحلم لم يكن واضحاً إطلاقاً..

تحاول تتذكر بعض التفاصيل ولكن ما من جدوى.. أغمضت عينيها قليلاً، ثم تنفست بعمق لعلها تتذكر أي شيء آخر، ولكن مازالت ذاكرتها العنيدة ترفض تزويدها عن أي شيء..

تجاهلت الأمر، وقالت لنفسها بأن حتى لو تذكرت الحلم بالتفصيل فهذا لن يفيدها بشيء، فهي لا تهتم كثيراً بشأن

الأحلام ولا تؤمن بتفسيرها..

ثم فجأة تذكرت شيئاً هاماً رأته في الحلم.. انتفضت من مكانها وكادت أن تغص في طعامها..

توقفت عن التفكير برهة ثم تساءلت إذا كان بإمكانها إخبار والدتها، وما هي إلا ثوان حتى جلست الأخيرة لتتناول الطعام، فتساءلت الفتاة إن كان هذا الوقت المناسب..

ترددت بعض الشيء، ثم اتخذت قرارها بأنها ستتحدث طالما أنها تستطيع، فقالت بصوت مرتجف:

– أمي، هل...

قاطعتها والدتها بجفاف:

– أسرعي في تناولك الطعام، سنذهب قريباً.

– لقد انتهيت.. ولكن سأخبرك بشيء..

سكتت الفتاة منتظرةً أن تسألها والدتها عمّا تريد قوله لكنها ظلّت صامتة كالجماد، بل إنها لم تنظر لابنتها حتى!..

فعادت الفتاة لتقول:

– اليوم حلمت بأشياء غريبة..

قالت المرأة فيما كان الطعام يتدحرج في فمها:

– اتركي عنك الأشياء الفارغة وركزي في دراستك.

– ولكن...

قاطعتها مجدداً فقالت ببرود:

– هاتِ الصحن الذي أمامك..

فدفعته الفتاة إليها في غضب، وقالت بصوتٍ أعلى من المعتاد فيما كانت والدتها تصب الشاي:

– ما رأيته في الحلم هو أيضاً متعلق بالواقع، لقد رأيت عدة فتيات في مدرستنا...

صاحت المرأة بغضب:

– سحقاً! لقد انسكب الشاي!..

انظري ماذا فعلتِ، قلت لك مراراً وتكراراً ألا تثرثري أمام الطعام.

حدقت إليها الفتاة في غضب، فقالت:

– على الأقل أنه لم يحرقك..

فصاحت الأخيرة مرة أخرى:

– سوف نذهب الآن، انتظريني في السيارة.

توجهت الفتاة نحو الباب غاضبةً، وكانت تتساءل: هل لو لم

ينسكب الشاي لكانت قد تمكنت من إخبارها؟..

صمتت قليلاً فقالت: قد يكون السؤال الأصح هو هل ستسمعني أم لا؟!..

وفي الطريق كانت تنتظر الفرصة المثالية للبدء في الكلام، ولكن من سوء الحظ أن والدتها مازالت غاضبة.. مما يعني بأنها لو تكلمت فمن المحتمل أن تجد نفسها خارج السيارة!..

2

استطاعت (سارة) – وبصعوبة – تجاهل ما رأته في الحلم، ليس فقط لأنه غير مترابط وغير منطقي، بل لأنها أيضاً لا تتذكر كل عناصره..

فمن الحماقة أن تقلق طوال اليوم بسبب حلم لا تتذكر أحداثه ولا تفهم معناه... إن كان يحمل معنى أصلاً!!..

انتهت الحصص الدراسية الثلاث بسرعة ولم يحدث شيء يستحق الذكر..

وفي الفرصة الأولى التقت (أماني) بصديقتيّ (سارة) كما وعدتها، وكانت الفتاتان تعلمان بعلة (أماني).. لذا لم تحاول أي منهما إلقاء الأسئلة عليها أو التسبب بإحراجها بأي طريقة، بل قامتا بالترحيب بها بحرارة وتمضية الوقت معها كما لو كانت صديقتهما منذ زمن طويل..

ولم تستطع الفتاة أبداً إخفاء سعادتها، إذ بدا لها أن هذا أفضل يوم في حياتها.. وكانت تردد ذلك بداخلها!..

وفي اللحظات الأخيرة من الفرصة انسحبت (سارة) من الفتيات بحجة أنها ستذهب دورة المياه، ولكنها ذهبت للطابق العلوي عوضاً عن ذلك..

وما إن صعدت بعض الدرجات حتى رنَّ الجرس..

أخذت تمشي ببطء وحذر معاً.. وصلت لمنتصف الممر تقريباً فرأت الفصل مفتوحاً من بعيد، فأحياناً يتم فتح الفصول في الجزء الأخير من الفرصة حتى لا تزدحم الممرات بعد انتهائها ومن ثم تتأخر الحصص..

توقفت في مكانها عدة ثوانٍ لتلقي نظرة على المكان بتوتر، فوعدت نفسها بأنها ستختصر الأمر وتنتهي من مهمتها بأسرع وقت ممكن..

أصبحت خطواتها خفيفة وسريعة.. دخلت الفصل بقدمين مرتجفتين.. أخذت تقترب أكثر وأكثر من المقعد الذي كانت تتوجه له، وفجأة سمعت صوتاً خلفها يقول:

– ماذا تفعلين هنا؟!..

تسمّرت الفتاة في مكانها وهي لا تعلم ما تفعل وماذا تقول..

فصاحت (لولوة) مجدداً:

– أخبريني ماذا تفعلين؟؟..

– لـ.. لا شيء!..

– ما هذه الورقة التي في يدك؟

فسحبت الورقة من يد (سارة) بينما كانت الأخيرة تقف مشدوهة وحائرة..

فتحت الورقة المطوية ووجدت عليها هذه الكلمات:

"لطالما كنتِ الفتاة التي يعتبرها الجميع مثالية.. إذ حصلت على الجمال والذكاء والقوة.. أتساءل كيف تغيرت فجأة وتوجهت لمنعطف آخر؟..

أرجو أن تعيدي النظر لبعض الأمور في حياتك وتقارني بين ماضيك المثالي وحاضرك الفاسد، ثم حاولي معرفة الأفضل لك".

تجمدت الفتاة في مكانها، أصبح وجهها مشدوداً لاشعورياً، فأخذت تهمس كما لو كانت قد فقدت عقلها:

– ماذا؟!.. (سارة).. هل.. هل هذه أنت؟.. أأنت صاحبة الرسائل المجهولة؟؟!!

– لـ.. لحظة.. (لولوة) أرجوك لا تسيئي فهمي، أنا فقط..

قالت الفتاة صارخةً بشكل فجائي:

– لماذا كنت تفعلين كل هذا؟ لماذا؟!!..

ثم سحبت زميلتها بعنف من رقبتها، وصرخت مجدداً:

– لماذا كنت تكتبين تلك الرسائل؟.. أخبريني ما الذي تريدينه؟ لماذا كنت تؤذيننا جميعاً؟!..

ووسط صراخ "اللؤلؤة" الغاضبة دخلت بعض الفتيات الفصل، فقالت (وسمية):

– اهدآن، لِمَ كل هذا الصراخ؟!..

وسرعان ما تفجرت الدموع من عينيّ (لولوة)، فقالت وهي تلهث:

– (سارة) هي صاحبة الرسائل، لقد رأيتها بينما كانت على وشك أن تضع إحدى الرسائل!.. ولقد كانت موجهة لي!.. يا إلهي!.. لقد رأيتها بنفسي، أقسم لكن!..

فأخذت تبكي بحرارة ودموعها تبلل وجهها تماماً..

وفي هذه الأثناء صرخت (هند):

– لا!.. أنت كاذبة، أنا أعرفك جيداً يا (لولوة) أنت دائماً تكذبين!.. لقد أخبرتني (سارة) بأنها كانت ذاهبة لدورة المياه، وأنا أعلم أنها لا تكذب عليّ أبداً، ومستحيل أن تكون هي كاتبة الرسائل، مستحيييل!!

عندئذ قالت (بدرية) التي قد دخلت للتو:

– هل ما تقوله (لولوة) صحيح؟!..

ظلّت (سارة) في مكانها دون أن تنطق بحرف، وكانت تتمنى لو تبتلعها الأرض وتُخفيها من الوجود!..

اقتربت (بدرية) منها، ثم صرخت بغضب:

– هل ما تقوله (لولوة) صحيح أم لا؟.. أجيبي.

ترددت الفتاة فقالت بنبرة قريبة من الهمس فيما كانت دموعها تتسلل على خديها:

– أنا لا أعلم لماذا فعلت هذا، لا أعلم!.. لكن أرجوكن اعلمن أن..

قاطعتها (غزلان):

– نعلم ماذا؟!.. اخبريني بم كنت تشعرين عندما تكتبين بعض الأشياء القذرة وتؤذيننا بها؟!.. أنت تعلمين أن هذا غير مسل أبداً، وإن كنت لا تعلمين ذلك فأنت مريضة إذن وتحتاجين عنايةً خاصة..

فصرخت عليها (هند):

– (غزلان) توقفي..

تجاهلتها الأخيرة وأكملت صياحها:

– يبدو أنك فعلتِ كل هذا وأنت غائبة عن الوعي، أخشى أنك شربت بعضاً من كأس أبيك السكير!..

ثم دفعتها (هند) بينما تصرخ:

– قلت لك توقفي، ابتعدي عنها..

تبادلت الفتيات الصراخ والشتائم، ثم الدفع وأخيراً أخذت الأقلام والدفاتر تتطاير في الفصل ذهاباً وإياباً.. حتى سادت الفوضى أرجاء المكان.

ثم دخلت معلمة الفيزياء صاحبة لقب "أكثر معلمة غضباً في المدرسة"، وما إن صاحت صيحةً واحدة حتى جمد الجميع في مكانه!..

استفسرت عن سبب الفوضى فلم يجبها سوى الدموع والأصوات المتداخلة، وبالطبع صرخت مرة ثانية - وعاشرة أيضاً - لإسكات الجميع، ولم تمر دقائق حتى عرفت كل شيء عن الرسائل المجهولة وبعض مواضيعها، ولم تهتم إن كانت (سارة) هي فعلاً قد كتبت الرسائل أم لا، إذ كل ما فعلته هو الاستمرار بالصراخ في وجوه الطالبات والشتم واللعن، وفي نهاية الحصة أرسلت الفتيات لمكتب المديرة لـ"تقاضي" كل واحدة منهن وتعطيها حقها..

وعندما عرفت المديرة عمّا حصل قامت بإجبار كل الفتيات بتوقيع تعهد بعدم الإساءة لأي طالبة، وقامت بفصل (سارة) لمدة ثلاثة أيام دون أن تهتم بشأن والدتها المعلمة، ودون أن تكلف نفسها عناء معرفة حقيقة الأمر..

وبدءاً من هذه اللحظة، غرق الفصل 4/10 بالكراهية والحقد

والبغضاء.. والقائمة لا تنتهي بالمشاعر السلبية بين الطالبات!

وكل طالبة أخذت تفكر بطريقة مثالية للانتقام، ولن تمانع أي واحدة منهن لو وصل الأمر للقتل!

1

لقد مرَّ يومان، والليلة الثالثة هي الآن..

بعد ساعات ستعود (سارة) إلى المدرسة بعد فصلها.. يا ترى هل ستؤذيها الطالبات؟ كيف ستسير الأمور؟ وكيف ستواجه المعلمات؟..

آلاف من الأسئلة اشتعلت بداخلها وانطفأت فجأة عندما جاءتها رسالة على تطبيق (الواتساب)..

فتحت هاتفها وإذا برسالة من (أماني) تقول:

– هل ستحضرين المدرسة غداً؟

تنهدت الفتاة وأجابت بالإيجاب بأيد ثقيلة..

مرّت لحظة صمت قصيرة، فكتبت (أماني):

– إنني لا أستطيع أن أصدق.. هل أنت كتبت الرسائل بالفعل؟ لا أعلم لماذا أشعر أن إحداهن دفعتك لذلك، هل هذا صحيح؟

– والدتي تناديني، سوف أعود بعد قليل.

كتبتها (سارة) بسرعة مع أخطاء إملائية لا بأس بها، ثم ألقت بهاتفها على السرير فذهبت ولم تعد إلا بعد ساعة، وعندئذ وجدت بطارية هاتفها ضعيفة فتجاهلته ولم تهتم بفتحه مجدداً.

2

منذ أن مشت (سارة) أولى خطواتها نحو باب المدرسة لم تتوقف عنها الأنظار..

ومازالت الأعين تحدق وتمحلق بها، ليس فقط من قبل طالبات فصلها، بل أيضاً من طالبات الفصول المجاورة والتي لم ترهن من قبل!..

جلست لوحدها في ساحة العلم لانتظار طابور الصباح الذي سيبدأ بعد دقائق، وما هي إلا لحظات حتى جاءت صديقتاها وانضمتا إليها..

كانت (هند) لا تجرؤ على النظر في عينيها ولم تحدثها منذ أن جاءت، أما (شيخة) فحاولت أن تكون مرحة بعض الشيء على الرغم أن الموقف لا يساعد على ذلك أبداً، فقالت:

– يا لكِ من عبقرية يا (سارة)!.. كيف جاءت في عقلك فكرة تلك الرسائل المجهولة؟ إنها لا شك أعظم مزحة في التاريخ!.. هناك الملايين ممن تفشل مزحاتهم ومقالبهم في كذبة أبريل، ربما هم ليسوا ببارعين مثلك! كم أتمنى أن أتعلم منك وأصيب كل شخص في العالم بالجنون بسبب هذه الموهبة!

وبعد أن أمرتها صديقتها بالصمت، أكملت قائلة:

– لماذا أنت حزينة؟ فقط لأن هؤلاء الحمقاوات كشفوك؟.. افرحي

يا فتاة، ما فعلته هو شيء عبقري، وأنا متأكدة بأنهن كشفوك بسبب صدفة لعينة لا أكثر، وربما لو كررت تلك الرسائل مجدداً لن يعرف أي أحد..

وأيضاً استمرت بتكرار عبارات كهذه:

– أنت عبقرية.. لقد فقدن عقولهن جميعهن لأكثر من شهر بسبب رسائلك، ماذا تريدين دليلاً أكثر من هذا يثبت أنك نابغة؟!..

وما زالت تثرثر بينما لا يسمعها أحد، وربما لا تمانع أن تستمر بالكلام حتى القرن التالي لو لم يرن الجرس!

3

انتهى الطابور بسرعة كما انتهت الحصتان الأولى والثانية دون شيء يُذكر، وأما الحصة الثالثة فهي الأحياء..

توجهت الفتيات نحو المختبر على "أنغام" صراخ المعلمة عليهن وتشبيهها لهن بقطيع الماشية نظراً لعدم سيرهن بشكل منتظم!

وهناك قد حصل أول تواصل بصري - لفظي بين (سارة) و(هند)..

إذ نظرت الأخيرة لصديقتها وابتسمت، ثم سألتها عن حالها، وأجابت "بخير" على الرغم أنها محطمة ومهشمة من الداخل!..

وما لبثتا أن تبادلتا بعض الكلمات حتى أمرت المعلمة الجميع بالسكوت ليبدأ الدرس..

ولكن من حسن الحظ أن الفرصة الأولى ستبدأ بعد دقائق، لذا أملت كل منهما أن تتحدث مع الأخرى..

كان الدرس عن تشريح كلية الخروف، وهذا وحده كان كفيلاً بتحويل المختبر إلى مسرحية هزلية!.. إذ أخذت الطالبات تضحكن بصوتٍ عالٍ، وتطلقن النكات والسخرية عنه..

فعندما ذهبت المعلمة للغرفة المجاورة لتحضر بعض الأدوات، أخذت (أسيل) مجسم الكلية لتلوح به على الطالبات وسط صرخاتهن الحادة..

إذ شعرت معظم الفتيات بالغثيان والاشمئزاز، إلا (فاطمة) التي

زادت شهيتها فجأة وتمنّت لو تأكل لحم الخروف وعينيه أيضاً!..

بعد ذلك بقليل قامت المعلمة بتشريح الكلية أمامهن، والغريب في الأمر أنها لم تكن ترتدي أي قفازات حينها!.. مما جعل الفوضى والثرثرة تعم المختبر مرة أخرى..

- "ويييييع! أبلة شلون تمسكين الكلية چذي؟!".

قالتها (نور) فيما تشعر بالاشمئزاز، فأجابتها المعلمة مازحةً:

- "عيب تقولين ويع عن الخروف، وبعدين أنتو يا بنات هالجيل تخافون حتى من الحشرة.. أذكر على أيامنا كنا احنا اللي نذبح الخروف وننظفه بدون ما نقول شي"..

وسرعان ما شهقت الفتاة تعجباً وتعالت أصوات البقية اشمئزازاً من ذلك الكائن الميت..

ثم قالت (دانة):

- "أبلة ما تخافين تمسكين مشرط التشريح؟ ما تخافين لو انجرحتي؟".

- "لا الحمدلله، وليش أخاف؟.. لمن تروحون الجامعة أنتو بنفسكم راح تمسكون الأدوات وتشرحون الكلية ومع الوقت ما راح تخافون".

وما هي إلا ثوانٍ حتى عادت الطالبات لدعابتهن الثقيلة، فكل منهن تقول للأخرى بأن الخروف يشبهها، وترد عليها الأخرى مازحةً بأنها إن لم تصمت سوف تجبرها على أكل الكلية!..

واستمر الأمر على هذه الحال حتى رنَّ جرس نهاية الحصة، ومن ثم أكملن سخريتهن في طريقهن في الممر، وأيضاً بعد نزولهن للطابق السفلي للذهاب إلى ساحة الفرصة!..

ووسط هذه الأجواء المملة سحبت (هند) صديقتها قائلةً:

– حسناً، انتهت الحصة.. يجب أن نتحدث.

قالت ذلك فيما كانت تنزل الدرجات الأخيرة لتتوجه إلى ساحة الفرصة..

فترددت الأخرى وقالت بسرعة:

– اسمعي، أرجوك سامحيني بشأن الرسائل، أعترف بأني أخطأت ولكن.. أنا فقط...

قاطعتها صديقتها قائلةً:

– لا عليك يا (سارة).. أصبح الأمر قديماً بعض الشيء، وربما (شيخة) كانت على حق، فهذه بالفعل تعتبر موهبة خارقة..

وضعت الفتاة ابتسامة زائفة على شفتيها، فهمست:

– لا أشعر بالأمان وسط نظرات الحمقاوات الحادة، أرجوك كوني بالقرب مني..

قالت (هند) محاولةً تخفيف توترها:

– لا تقلقي، تجاهليهن فقط..

طأطأت الفتاة رأسها، ثم عادت الأخرى لتقول:

– أرجوك يا (سارة) لا تخافي، أنت تعلمين أنهن لن يستطعن إيذاءك..

فما كان على (سارة) إلا أنها أمسكت بيد صديقتها وهمست مجدداً:

– بعد أن ينتهي اليوم الدراسي قد أتصل بك في أي وقت.. يجب أن أخبرك بأمر هام، وأنا أعلم أن لا أحداً سيصدقني سواك، لذا أريدك أن تساعديني..

– اتصلي بأي وقت يا عزيزتي، وسأكون دائماً جانبك..

شعرت (هند) بتوتر صديقتها، فلم يسبق أن رأتها تائهة وخائفة هكذا، مسكت يدها بقوة فيما تشعر بنبضها المتسارع..

وفجأة رفعت (سارة) رأسها وقالت كما لو كانت في عجلة من أمرها:

– يجب أن أذهب الآن.

تساءلت الأخيرة بتعجب:

– أين؟!

– نسيت محفظة أقلامي في المختبر، سأذهب لوالدتي لآخذ منها

المفتاح.

– دعيني أذهب معك.

– هي بالكاد تسمح لي أن أدخل قسم المعلمات، وستغضب لو رأتك معي..

– سأنتظرك بالقرب من الباب، ولن تراني...

قاطعتها (سارة) فجأة:

– لا أستطيع، لكني سأعود قريباً..

وفيما كانت تبتعد صاحت لصديقتها:

– أعدك بأنني لن أتأخر.

4

صعدت الفتاة للطابق الأعلى ووصلت لقسم معلمات الأحياء فيما كانت تلهث بسبب هرولتها..

وحدث كما هو متوقع، إذ ما إن دخلت حتى رمقتها والدتها وسألتها عن سبب وجودها.. ومن حسن الحظ أن المرأة لم تستطع رفض طلبها أمام المعلمات، فما كان عليها إلا أن تعطيها المفتاح.. ثم تقمصت دور "الأم الطيبة" وأمرت ابنتها بالعودة سريعاً..

وما إن خرجت الفتاة من الغرفة المزدحمة بالطعام والمشروبات حتى بدأت إحدى المعلمات بالحديث عنها ومدحها أمام والدتها، وقالت المعلمة التي تقوم بتدريس فصلها بأنها ذكية وتحفظ المعلومات بسرعة، ولا شك أنها ورثت ذلك من أمها..

فضحكت الأم وكانت هذه من المرات النادرة التي تضحك بها دون تصنع.

استمرت النساء بالحديث عن الفتاة لبعض دقائق وذكر مواطن التشبيه بينها وبين والدتها..

5

فتحت (سارة) باب المختبر بأيدٍ مرتجفة ومتعرقة..

دخلت وأغلقت الباب خلفها دون أن تقفله..

وقفت حائرة في مكانها لوهلةٍ فيما تقفز عيناها على عناصر المكان بسرعة..

وما هي إلا لحظات حتى سمعت صوتاً خلفها يقول:

– ماذا تفعلين هنا؟!

أدارت الفتاة وجهها مرتعبة، وقبل أن تدرك هوية "الداخل" تلقت لكمة شديدة على وجهها أسقطتها أرضاً!

6

رنَّ جرس نهاية الفرصة وسط ضحكات المعلمات في القسم وثرثرتهن التي تكاد لا تنتهي..

وفجأة قامت أم (سارة) من مكانها قائلةً:

- "يا ربي وين راحت هالبنت؟ ساعة كاملة عشان تاخذ مقلمتها!"..

فقالت إحدى المعلمات:

- "أنا الحين عندي حصة بالمختبر، راح أشوفها وآخذ المفاتيح"..

- "لا لا خلّيچ بمكانچ يا أم (سعود)، أنا رايحة أشوفها".

خرجت المرأة من الغرفة وصعدت الدرج فيما كان الطابق العلوي خالياً تماماً، فالجرس قد رنَّ للتو وبعد لحظات ستأتي الطالبات للأعلى تدريجياً..

اقتربت من باب المختبر فوجدته مفتوحاً، وعندما دخلت صرخت صرخةً وصل صداها إلى السماء!

1

بدأ طابور الصباح هادئاً لأول مرة..

وما إن انتهت فتاة الإذاعة من تحية الصباح المعتادة حتى أنبأت الجميع بوفاة الطالبة (سارة) من الفصل 4/10!..

ارتعدت القلوب، وجمدت الوجوه..

ساد الخوف المكان وعلت الهمسات والهمهمات.. لقد انتشر خبر وفاتها بالأمس ولكن خبراً كهذا يجعل الطالبات تتألم في كل مرة تسمعه أو تتذكره!

وبعد أن قدمت الفتاة النعي جاءت مديرة المدرسة واعتلت منصة العلم، كانت هادئة هذه المرة ويبدو عليها الحزن والتعب، فأخذت تقول:

– يؤسفني القول إننا فقدنا طالبة رائعة وممتازة، ويؤلمني بشدة أن أخبركن بأن الوفاة لم تكن عادية، بل كانت جريمة قتل!..

ما إن قالت كلمتيها الأخيرتين حتى سمعت شهيقاً عالياً كما لو أن جميع الطالبات قد شهقن معاً!..

فأكملت قائلةً:

– والآن، لقد قمنا بإقفال مختبر الأحياء الذي كان هو مسرح الجريمة ومنعنا فتح أي مختبر لأخذ احتياطات الأمن والسلامة، وأما بالنسبة للاختبارات العملية فسيتم إجراؤها في الصفوف على أن تحضر المعلمات الأدوات دون أن تلمسها أي طالبة..

وأود التنويه بأن رجال الشرطة سيكونون متواجدين في معظم أنحاء المدرسة، وبالطبع سوف يقومون بالتحقيقات للتحري لهذه الجريمة البشعة، فعلى كل طالبة تتوقع أن يقابلها المحقق بأي لحظة وتكون مستعدة..

ملأت بعض الأحاديث ساحة العلم، فبعضهن كن يترحمن على المسكينة، والبعض أخذن يلعنَّ الحظ العاثر الذي قادهن إلى هذه المدرسة الملعونة..

ولكن كان الخوف واضحاً على كل طالبة ومعلمة في المكان..

حاولت المرأة تهدئة الأجواء المملوءة بالتوتر والدراما، فقالت:

– لا تقلقن يا فتيات، قد لا يقابل رجال الشرطة كل واحدة منكن، وإذا اختار طالبةً فهذا لا يعني أنها متورطة أو مشتبه بها.. لقد أخبرني أنه سيجمع منكن معلومات فحسب.. أرجوكن اهدأن، فهذه ستكون أشبه بالمقابلة العادية ولا داعي لتسميتها "تحقيقا" أو "استجوابا" كما أخبرني..

كما أرجو من الجميع المحافظة على النظام العام والأخلاق

ونظافة المكان، فمن غير اللائق أن يرى رجال الشرطة فوضى في مكان دراسي.. يكفي الحادثة المروعة التي نعيشها!

مسحت دمعة تزحلقت من عينها وشكرت الطالبات لاستماعهن، ثم صفق لها الجميع بعد أن انتهت..

وكانت هذه أول مرة تتأكد فيها الطالبات أن المديرة لديها مشاعر!

2

وقف المحقق (خالد) متأملاً المكان بعينيه اللامعتين..

كان مرتب الهيئة، ذا شعر بني داكن قريب من لون حذائه كأنه تعمد اختيار ذلك..

ولمن ينظر إليه لأول مرة قد يستصعب عليه التصديق بأنه أوشك الدخول في منتصف الثلاثين من عمره.. إذ بدا وسيماً وخالياً من أي تجاعيد، ولا يختلف مظهره عن مظهر شاب، خصوصاً وأنه كان يرتدي قميصا كلاسيكيا مع بنطال مناسب بدلاً من الزي الوطني.

قطعت المديرة تأملاته وخواطره عندما جاءت إليه قائلةً:

– هل أستطيع مساعدتك في شيء يا سيدي؟

أطرق الرجل برأسه فقال:

– شكراً لك سيدتي، إنني فقط أتفحص المكان بعينيّ.. هذه طريقتي قبل البدء في أي قضية.

سكت قليلاً ثم ابتسم فيما كانت عيناه تتنقلان من زاوية لأخرى، فأكمل:

– إنه مكان رائع، أليس كذلك؟

نظرت المديرة لأسفل ثم قالت بحزن:

– بالفعل هو كذلك.. هذه المدرسة جزء مني.. لقد درستُ بها ثم أصبحت بها معلمة، وها أنا أديرها الآن.

تنحنح الرجل وبرزت "تفاحة آدم" في حنجرته بشكل أكبر من المعتاد، فقال:

– من المؤسف جداً أن مكاناً رائعاً كهذا ينقلب لمسرح جريمة مروعة!

سألت المرأة بتوتر:

– هل أنت متأكد أنها جريمة؟ أعني.. ماذا لو كانت الوفاة حادثاً؟ أو أن القتل غير متعمد..

– سيدتي، لا أحاول أن أكون وقحاً لكن القتل هو قتل سواء كان بتعمد أم لا...

قاطعته المرأة بسرعة:

– نعم نعم، أفهم ذلك.. ولكن ألا يوجد احتمال بأن رجال الشرطة مخطئون؟

– يؤسفني نفي ذلك بشدة يا سيدتي، فمعالم الجريمة واضحة في كل شيء..

سكت قليلاً ليلتقط أنفاسه فاستطرد قائلاً:

– تبدو على الضحية آثار ضرب بشعة بالإضافة إلى وجود جرح عميق في الرقبة، حيث كان مشرط التشريح هو أداة الجريمة، وجدناه مملوءاً بدم الضحية و...

قاطعته المديرة باكيةً فيما تضع يدها على فمها:

– أوه! يا إلهي! إن آخر ما توقعته هو أن ينتهي المطاف بمدرستي بجريمة!.. يا إلهي!...

أخذت تتمتم بعبارات غير مفهومة بعد أن اختلطت دموعها مع كحل عينيها، حاول الرجل تهدئتها ووعدها بأن القضية ستنتهي قريباً وبعدها ستعود المدرسة مكاناً سالماً، ثم ابتعد عنها ليبدأ بمقابلة الطالبات.

1

ارتشف المحقق بعضاً من قارورة المياه التي قدمتها له إحدى العاملات، واستعد لمقابلة الطالبات..

كان قد انتهى للتو من أخذ المعلومات من بعض معلمات الأحياء، واتفقن جميعهن على نفس الحقائق.. وهي أن الضحية جاءت للقسم في الدقائق الأخيرة من الفرصة، وعندما رن الجرس صعدت والدتها للأعلى لتتفقد سبب تأخرها فوجدتها جثة هامدة!..

ولكن لم تكن أي من المعلمات دقيقة في ذكر التوقيت.

اعتدل الرجل في جلسته استعداداً لأول مقابلة..

كانت المقابلات تُجرى في مسرح المدرسة، ولقد بدأ مع (طيف)..

دخلت الفتاة ببطء وبدت شاحبة اللون ومرهقة بشكل واضح، ثم ألقت جسدها النحيل على الكرسي بإهمال..

كانت هادئة وتتكلم بنبرة غير مسموعة في البداية، ولكن كلما تتحدث تزداد شجاعةً وتختار كلمات أكثر..

سألها عن مدى معرفتها بالضحية فأجابت بأنها لا تعرف أكثر من اسمها، وأيضاً قالت إنها لم تعرف أي سبب يدعو أي فتاة لقتلها، كما أكدت أنها لم تتوقع أبداً حدوث جريمة قتل في المدرسة..

وسألها بعد ذلك عما إذا كان للضحية أعداء أو هل سبق أن تشاجرت مع إحداهن، فتنهدت فقالت:

– "أوف!.. انا كنت غايبة طول الفصل وما صارت الجريمة إلا باليوم اللي داومت فيه؟!".

– من فضلك يا سيدتي أجيبي على السؤال..

أجابت بغضب:

– لا أعرف.

أطرق الرجل برأسه فسألها:

– حسناً.. هل لي أن أعرف بم شعرت عندما علمت بمقتلها؟

أجابت الفتاة ببرود:

– لم أشعر بشيء.

توقع المحقق إجابةً كهذه وتفاجأ عندما علم أنه أصاب في حدسه، ثم قال باستغراب:

– لم يؤثر بك خبر وفاتها – أو بالأحرى قتلها – أبداً؟!

تنهدت الفتاة مرة أخرى فأجابت باختصار:

– كلا.

شعر الرجل لوهلة أنها تخفي شيئاً ما، لكنه لا يعلم بعد.. فسألها

محاولاً تغيير الموضوع:

– هل سبق أن رأيت شيئاً في المدرسة من شأنه أن يسبب شجاراً بين الفتيات؟

ترددت الفتاة قليلاً وقد شعر الرجل بها، فسألت بعد أن اتسعت حدقتاها:

– ماذا تقصد؟؟

– مثلاً كأن تحضر إحداهن صوراً لابتزاز الأخريات أو وجود علاقة مشتركة بين فتاتين وشاب كما تحدث في روايات هذا العصر..

هزت الفتاة رأسها نفياً فيما كانت تحك أنفها ثم أخبرها بأنه انتهى منها وسمح لها بالذهاب.. وعندما كانت على وشك الخروج سألها عن سبب غيابها الكثيف، فدارت ببطء وقالت بعد صمت قليل:

– ظروف صحية.

ثم خرجت من المكان.

واستقبل بعدها كلا من (وضحة) و(بدرية) و(فاطمة) على حدة، وكانت أقوالهن متشابهة كما لو اتفقن جميعهن على نفس الحقائق..

إذ قالت كل واحدة منهن بأنها لا تعرف الضحية جيداً، فهذه المرة الأولى التي يشتركن معها في نفس الفصل، كما أكدن جميعهن أنها كانت تبدو دائماً مضطربة ومن الصعب معرفة ما تشكو منه..

وعندما سألهن عن معرفتهن إذا كان لديها أعداء رفعت (بدرية) رأسها لأعلى وقالت فيما تفكر بعمق:

– لا أعتقد أنها تكره شخصاً بعينه، ولكن أظن أن معظم الفتيات كن يكرهنها، وذلك بسبب مكانة عائلتها السيئة ومشاكلها التي جعلتها منغلقة على ذاتها.. وبالتالي أصبح الجميع يعتبرها غريبة الأطوار.

سألها المحقق بفضول:

– هل تعتقدين أن كره الطالبات لها هو دافع الجريمة؟

– لا أعرف يا سيدي، لقد كانت منعزلة كما أخبرتك، ولا أعرف ما يعتقد الآخرون بشأنها..

وبعد القليل من الأسئلة التي لم تتعدَّ هذا النوع أمرها الرجل بالانصراف.

2

كانت المقابلة التالية مع (أسيل) التي جاءت مبتهجة ومبتسمة كأنها في حفل زفاف أقرب أقربائها!..

جلست على الكرسي بشكل فوضوي بينما راحت تلعب بخصلات شعرها الذي بالكاد يصل إلى أذنيها..

ثم أخذت تثرثر عن كل ما يخطر ببالها منذ أن جلست، وبالكاد سمحت للرجل أن يسألها عن اسمها..

أخذ المحقق يحدق بها مستغلاً "انشغالها" بالحديث، ويا للعجب!.. لا يوجد بها أي لمسة أنثوية.. إذ بدت وكأنها ولد تماماً.. ولو كان يمكن للأولاد الدخول في هذه المدرسة لما شكَّ أنها فتاة!..

وسرعان ما أخرست تأملات الرجل عندما قالت:

– وكما أخبرتك قبل قليل.. فوالدي رجل قانون وأطمح أن أكون مثله، لذا تعلمت الكثير عن هذا العلم الرائع وأنا على استعداد أن أتخصص به بعد تخرجي من الثانوية.. وقد أصبح في مثل وظيفتك يوماً ما، أو قد أختار..

قاطعها الرجل بشيء من التحفظ:

– عذراً يا سيدتي، لست هنا لأعرف ميولك ومستقبلك، كل ما أريده

منك هو الإجابة على أسئلتي لنساعد الجميع في تجاوز هذه المحنة.

قالت بعد أن هزت رأسها:

– ربما لا شأن لي بالجميع، ولكنني سأجيبك لأنني أود مساعدتك، وأيضاً لأنني أتحرق شوقاً لمعرفة حقيقة الأمر.. فالتحري والتحقيقات أمور تسبح في عروقي منذ أول شهيق لي!..

تجاهل الرجل كل ما لم يكن من المفترض أن تنطق به، فسألها:

– حسناً إذن، هل لك أن تخبريني كيف كانت علاقتك بالضحية؟

أطرقت الفتاة برأسها، ثم قالت:

– امممم، حسناً.. كما تعرف، أنا فتاة اجتماعية وأحب التعرف على الجميع بلا استثناء، وعلى الرغم أنني كنت – ومازلت – قريبة من كل فتاة في المدرسة تقريباً، إلا أنني أكاد لا أعرف شيئاً عنها، فهي غريبة الأطوار وأعتقد أنها كانت تكرهني بشدة..

عرف الرجل بأنها ستلقي عليه سيرة حياة الضحية ما لم تتوقف عن الكلام، لذا قاطعها سائلاً:

– ولماذا تعتقدين أنها تكرهك؟

– أنا لا أعتقد، أنا أعرف..

فغمزت بعينها ثم استطردت:

– لقد كانت دوماً تنظر إليّ بكره وحقد لا أفهم سببه، وأذكر أنها كانت تكره دعاباتي.. هل تعرف يا سيدي؟.. معظم الناس في هذا الوقت أغبياء! هم لا يعرفون كيف يجعلون أنفسهم سعداء ولكنهم يريدون السعادة! وأنا دوماً أحاول تقديم جرعة سعادة لهؤلاء مثيري الشفقة من خلال دعاباتي ومزحاتي والمقالب التي أفعلها دائماً.. وأعترف بأنني قد أكون مملة أحياناً ولكن هذا لا يمنعهم من الضحك والتبسم حتى وإن كانوا يتظاهرون به!..

تنهد الرجل بعد أن سمع هذه الخطبة التي كانت جواباً لسؤال من عدة كلمات، فقال بينما كان يتمنى ألا تطيل كثيراً:

– حسناً يا سيدتي، أتفهم ذلك.. لكن كرهها لمزحاتك قد لا يجعلها تكرهك، أليس كذلك؟

صاحت الفتاة بقوة:

– لا أعتقد ذلك، فقد كانت تلك الفتاة غبية!

المحقق باستغراب:

– عفواً؟!

احمرَّ وجه الفتاة فتنحنحت قائلةً:

– أعتذر على انفعالي الفجائي، ولكنها..

ترددت بعض الشيء فيما تحاول اختيار كلمات مناسبة، ثم قالت بعد صمت دام لثوانٍ:

– ربما لأنها تكره الأشخاص من فئتي، أعني.. ربما لأنني فقط.. لم أتصرف أبداً كبقية الفتيات..

اعتقد الرجل بأنه فهم مقصدها، فأطرق برأسه معتذراً ثم سألها:

– بما أنك درست القانون كما قلت فلا شك أنك قد تعلمين عن دوافع ارتكاب الجريمة.. فهل لديك أي فكرة عن دافع جريمتنا هذه؟

– عذراً سيدي، أنا لم "أدرس" القانون، أنا فقط قرأت وتعلمت دون أن ألتحق بأي مؤسسة تعليمية بهذا الشأن.. وأما عن سبب ارتكاب هذه الجريمة فلا أعرفه، خصوصاً أنني لا أعرف أعداء الضحية وليس لدي فكرة عن لماذا يريد أحدهم قتلها.. علاوة على ذلك، جميعنا سنموت يوماً ما، فلا أعلم لماذا تهدرون جهدكم ووقتكم في حادثة كهذه!

شعر المحقق بأنها تناقض نفسها بوضوح.. فتارة تقول إنها تود معرفة حقيقة الأمر وسوف تتخصص في التحقيقات، وتارة توحي بأنها لا تهتم بشأن الجرائم لأن الجميع سيموت!..

لم يود الرجل توجيه هذه الملاحظة لها لأنه يعلم أنها لن تصمت أبداً، لذا غمغم بعدة كلمات وأخبرها بأن مقابلتها انتهت، ولكنها توقفت وقالت:

– هل لي أن أسألك شيئاً؟

– نعم، بالطبع.

– كنت أتساءل كيف ستعرف الجانية في النهاية؟.. بالطبع لن تعترف لك أبداً، أليس كذلك؟

قال الرجل باستحياء:

– من فضلك سيدتي فلا وقت لدينا لهذه الأمور، أرجو ألا تتوقفي بإعطائي المعلومات الهامة وستدركين بنفسك أن عملاً كهذا ليس بسهل إطلاقاً.

هزت الفتاة رأسها متفهمةً، واندهش المحقق عندما خرجت دون أن تنطق بحرف..

3

دخلت بعدها (نور) التي كانت تظهر عليها ملامح الثقة والشجاعة..

جلست على الكرسي معتدلة القامة ثم أخذت نفساً عميقاً..

وبعد أن عرّفت عن نفسها للمحقق بكلمات بسيطة أخبرته بأنها انتقلت لهذه المدرسة مؤخراً، وأنها تحاول أن تكون على علاقة جيدة مع جميع الفتيات على الرغم من الأجواء المشحونة بالكره والغضب.

وبعد ذلك سألها الرجل:

– هل تذكرين متى آخر مرة رأيتِ فيها الضحية؟

رفعت الفتاة رأسها وكأنها تسترجع شريط ذكرياتها، فقالت:

– أعتقد أنني رأيتها في نهاية حصة الأحياء، وتحديداً عندما كانت تهم بالنزول للطابق السفلي مع صديقتها.. إذ كان هذا أول لقاء لهما بعد شجارهما..

سكتت قليلاً فقالت بحزن:

– إنه لمن المؤسف أن تفقد أحدهم بين لحظة وأخرى!..

تأمل المحقق عينيها اللتين تشعان منها الذكاء، فقال بعد صمت:

– بما أنك جديدة في هذه المدرسة فلا شك أنك أمضيت بعض وقتك تتأملين الفتيات الجديدات اللاتي دخلن حياتك فجأة.. لذا قد يكون لدي الحق أن أسألك ما إذا لاحظتِ شيئاً يدعو لشجار عنيف أو كره شديد قد يؤدي لجريمة كهذه..

ابتسمت الفتاة وقالت كما لو كانت في لقاء تلفزيوني:

– هذا صحيح، لقد كنت أتأمل تصرفاتهن دوماً.. إنني فضولية أكثر مما تعتقد يا سيدي، وأما عن الجزء الأخير من سؤالك، فأعتقد أن الرسائل قد تكون هي سبب كل المشاعر السلبية بين الطالبات في الآونة الأخيرة.

سأل الرجل باستغراب:

– أي رسائل؟؟

– ألم يخبروك؟!

هزَّ الرجل رأسه نفياً، ثم استطردت الفتاة:

– لقد كانت هناك رسائل مجهولة تضايقنا بلا سبب واضح.. فتارة تشتم الفتيات وتارة تفشي أسرارهن في العلن.. وقبل مقتل الضحية بفترة قصيرة رأتها إحدى الفتيات بينما كانت تضع رسالة في حقيبتها! وبعد أن تم فصلها قُتِلَتْ في نفس اليوم الذي عادت به!..

سكتت الفتاة قليلاً لتلتقط أنفاسها، فعادت لتقول ببطء:

– ألا يوحي لك ذلك بشيء؟.. أعتقد لو كان الجماد يفكر لعرف

بوضوح أن سبب مقتلها هو الانتقام بسبب كتابتها للرسائل!

قال الرجل باهتمام:

– يجب علينا ألا نستعجل سيدتي، فبالبداية يجب أن نعرف سبب كتابة الضحية لهذه الرسائل، وهل كتبتهم بنفسها أم هناك من أجبرها، والأهم هو أن نعرف ما إذا كانت قد كتبتها حقاً أم لا.. فمن الممكن أن تكون هناك فتاة أخرى كتبتها وأجبرت الضحية على وضعها..

نظرت الفتاة إلى الأسفل فيما تتساءل كيف لم تفكر بشيء كهذا، وقطع حبل أفكارها عندما سألها الرجل عن مضمون تلك الرسائل.. فأخبرته بكل ما تستطيع ذاكرتها إلتقاطه، كما أخبرته أيضاً بالرعب الذي نشب بين الطالبات فجأة وكيف أنهن رفضن أن تعرف المعلمات عن تلك الرسائل خوفاً من العقاب..

ثم سألها عن ماذا تتوقع أن يكون سبب نشر تلك الرسائل، فأجابت بعد أن تنهدت:

– أتمنى أن أعرف يا سيدي.. ففي بداية "ثورة" تلك الرسائل كنا نعتقد أنها مزحة من إحداهن، ولكن تدريجياً اكتشفنا أنها تريد شيئاً أكثر من أن تكون مجرد مقلب لا يُنسى!..

صمتت الفتاة قليلاً ثم عاودت الكلام:

– وأنا شخصياً أعتقد أنها تريد أن تضعنا في اتجاه معين، كأنها تريد أن تشتت انتباهنا عن شيء ما.. أو كأنها تحاول أن تجعل تركيزنا في مكانٍ آخر... لا أعرف إن كان كلامي واضحاً سيدي، قد لا أكون قد

عبرت عما بداخلي بكلمات صحيحة..

قال الرجل بسرعة:

– أتفهم ذلك سيدتي، ولقد نجحتِ في إيصال أفكاركِ إليّ.

ثم ابتسم ليعطيها بعض الإحساس بالأمان، فقالت بقلق:

– منذ أن أتيت إلى هذه المدرسة الملعونة وأنا لا أشعر بأنني على ما يرام.. شيءٌ بداخلي يمنعني من التفاؤل بشأنها، لا أعلم لماذا أشعر بأشياء غريبة.. أو.. ربما هذا مجرد شعور سلبي آخر بسبب الظروف السوداء التي نمرُّ بها!..

قال الرجل متعاطفاً:

– سأكون سعيداً لو أخبرتني بكل ما تشعرين به، حتى وإن لم يكن ذا صلة بقضيتنا هذه.

تنحنحت الفتاة فيما كانت تضغط على يدها قائلة:

– ربما أنا بالكاد أفهم مشاعري! ولكن.. كل ما أشعر به هو أنه قد تكون هناك أشياء غريبة في هذا المكان.. لا أعلم لماذا حدسي يخبرني بذلك، وأنا لا أشعر بشيءٍ عبثاً!..

أعني.. هناك الكثير من القوانين والتشدد في هذه المدرسة، وأظن أن المديرة لن تقوم بفرضها ما لم تكن هناك أسباب كافية لها!

هزَّ الرجل رأسه متفهماً وأدرك توترها الذي هجم عليها فجأة، لذا قرر إنهاء مقابلتها طالما أنه قد أخذ منها معلومات كافية.

4

جلست (وسمية) بينما تملأها علامات التوتر والغضب في آنٍ!.. إذ بدت منفعلة أكثر من أي وقت مضى، وسرعان ما قالت:

– هل لي أن أعرف لماذا أنا هنا؟

فقال لها المحقق بهدوء:

– استدعيتك لكي تساعديني في هذه القضية، وبطبيعة الحال..استدعائي لشخص ما لا يعني أنه متورط، فلقد قابلت بعض الفتيات والمعلمات قبلك وهذا لاً يعني أن جميعهن اشتركن في الجريمة معاً، أليس كذلك؟

فقالت الفتاة بإصرار:

– أنا لا أعرف شيئاً عن الجريمة.

– تمهلي قليلاً، فأنا لم أبدأ بعد..

أخذ الرجل نفساً طويلاً فعاد ليقول:

– في البداية أود أن أعرف علاقتك بالضحية؟ إلى أي حد كنت تعرفينها؟..

تأففت الفتاة ثم قالت بنبرة جافة:

– لقد كانت معي في المرحلة الابتدائية، لكنها لم تكن صديقتي ولم

أعرف عنها الكثير.

قال المحقق مشجعاً:

– حسناً إذن، هذه معلومات جيدة، ولقد أفادتني!

والآن، بما أنك على معرفة بها منذ المرحلة الابتدائية فقد تعرفين – ولو قليلاً – عن أعدائها وأصدقائها.. أليس كذلك؟

وما إن انتهى من نطق كلمته الأخيرة على عجالة حتى ألقى بقارورة الماء في فمه محاولاً إدخال أكبر عدداً من القطرات في أقل وقت ممكن!

فقالت الفتاة العنيدة:

– لا شأن لي بأصدقائها ولا أعدائها، فلم أكن على أي اهتمام بها..

سألها المحقق بفضول:

– لماذا؟!

فأجابت ببرود:

– لأنها ببساطة لم تكن صديقتي.. أهلاً بك في مدرسة الثانوية أيها المحقق!

قالتها كما لو كانت تستهزئ به، فتجاهل الرجل وقاحتها وقال:

– لقد أخبرتني إحدى الفتيات بشأن الرسائل التي تلقتها طالبات

فصلكِ، فهل تلقيتِ أيا منها؟

بدا عليها التجهم فقالت:

– تلقيت واحدة فقط، لا أذكر محتواها ولكنها كانت تشتمني.

– هل تعتقدين أن (سارة) هي من وضعتها؟

– الجميع يعرف بأنها صاحبة الرسائل، فلقد رأيناها وهي تضع إحداها..

قاطعها المحقق موضحاً:

– أعلم، ولكن من المحتمل ألا تكون هي من وضعت الرسائل، فهل تعرفي ما إذا كانت إحداهن قد أوحت لها بالفكرة أو أجبرتها؟

– لا أعلم...

وفجأة صاحت الفتاة كما لو تذكرت شيئاً هاماً:

– لا لا، مهلاً!.. أعتقد أنني أعرف، أو على الأقل أشك في إحداهن..

اتسعت حدقتا المحقق فتساءل بفضول:

– من؟؟

– (أسيل)!

قالتها بانتصار كأنها قد حققت فوزاً عظيماً للتو!..

فاستطردت قائلةً:

الطفولية.. فهي إنسانة حقودة ومثيرة للاشمئزاز بدرجة غير متوقعة، ولا أستبعد أنها هي العقل المدبر وراء كل هذا!

قال الرجل بعد أن أطال النظر في عينيها:

– من الواضح أنك تكرهينها..

فقالت في لامبالاة:

– أنا لست مجبرة أبداً على حب أي شخص، فهناك الكثير من الحمقى في العالم الذين يتلألأ فيهم الكره والحقد!

تعجب الرجل بلمستها البلاغية السابقة فقال بعد صمت:

– كون أن الضحية قُتِلَتْ في نفس اليوم التي عادت به إلى المدرسة، فهل تعتقدين أنها لقيت حتفها انتقاماً؟

قالت الفتاة بصرامة:

– إذا كنت تعتقد أنني من أردت الانتقام فأؤكد لك أن أمر الرسائل لم يكن يهمني كثيراً، فأنا أؤمن أن المدرسة ليست بمكان مناسب للانتقام والأخذ بالثأر!

كما أن كل واحدة من الفتيات أرادت الانتقام من (سارة)، ولكن هذا لا يعني أنهن اشتركن في الجريمة معاً، أليس كذلك؟

قالتها فيما ترمقه بطرف عينها، وبعد ثوانٍ قليلة سمح لها بالذهاب بعد أن سببت له الصداع!

5

مسحت (هند) دمعة تسللت من عينها فسمعت صوت المحقق يقول:

– إذن أنت تقولين إن الضحية كانت معك قبل مقتلها؟

– نعم سيدي..

ثم التقطت أنفاسها واستطردت:

– خرجنا معاً من مختبر الأحياء وتوجهنا لساحة الفرصة بعض دقائق، ثم استأذنت الذهاب فجأة لتأخذ محفظة أقلامها كما قالت، وبعد ذلك.. ما – ماتت!!..

أجهشت الفتاة بالبكاء بحرارة بينما أخذ الرجل ينتظرها ريثما تهدأ..

وبعد أن سكتت قليلاً بادر بسؤالها:

– هل لك أن تذكري الوقت الذي ذهبت به بالتحديد؟

وضعت الفتاة يدها على رأسها وأجابت بعد ثوان من الصمت:

– أتذكر أن أنظاري وقعت على ساعتي الرقمية عندما مسكت يدها.. أعتقد أنها كانت تشير وقتئذ إلى 10:11 أو إلى رقم قريب.

نظر إليها المحقق طويلاً، ثم قال:

– أعتقد أن المختبرات تكون مغلقة في الفرصة، أليس كذلك؟

– صحيح، لذلك هي ذهبت لقسم الأحياء لتأخذ المفتاح من والدتها، وهذا هو سبب رفضها لذهابي معها.. إذ أن والدتها بالكاد تسمح لها أن تتواجد هناك..

ترددت الفتاة بعض الشيء ثم قالت بعد أن سرت بجسمها قشعريرة:

– لقد كانت تتصرف بشكل غريب لم أرها عليه من قبل.. إذ بدا عليها الخوف والتوتر أكثر من أي وقت مضى.. وأخبرتني بأنها سوف تتصل بي بعد نهاية اليوم الدراسي لإعلامي بشيء هام!

مسحت دموعها الكثيفة التي أغرقت وجهها تماماً، ثم عادت لتقول بانفعال:

– يا لها من مسكينة!.. أخبرتني بأنها لا تشعر بالأمان وكانت تشعر بأن هناك من سيؤذيها.. لم أكن أتصور بأن إحداهن ستقتلها!.. يا إلهي!.. لقد – لقد وعدتها أن أكون بجانبها.. وبالفعل كنت بجانبها لكنها ماتت وأنا لا أعلم!!..

اختلطت كلماتها المبعثرة بنحيبها وأصبح من المتعذر فهم ما تقول..

وفي هذه الأثناء كان الرجل ينظر لها بأسى فيما تتكاثر أفكاره في كل جزء من الثانية!

وبعد أن ارتشفت قليلاً من الماء وهدأت، سألها:

– بما أنك صديقتها المقربة فلا شك أنك تعرفينها جيداً.. فهل كان لها أعداء؟

مسحت أنفها فقالت:

– (سارة) لم تكن تكره أحداً.. ربما كرهت بعض الأشخاص بسبب سخطهم عليها، ولكن لا أظن أن الأمر سيصل إلى العداوة..

سارع المحقق بسؤالها:

– وهل كان هناك من يكرهها؟

ترددت الفتاة بشكل واضح قبل أن تجيب:

– لا أعرف، ولكن الكثيرات كن يرمقنها بنظرات حادة دون سبب واضح.. لا أعلم إن كن يكرهنها أم لا..

اعتدل الرجل في جلسته فسألها:

– وماذا بشأن الرسائل؟.. قيل لي إن هناك من رآها فيما كانت تضع إحداها..

– هذا صحيح، لقد رأتها (لولوة) وهي تفعل ذلك..

أطرق الرجل برأسه قائلاً:

– ولماذا تعتقدين أنها كتبتها؟

– لا أعلم، ولكن لا أظن أنها هي من كتبتها...

قاطعها بسرعة:

– ألم تقولي للتو بأن (لولوة) رأتها فيما تضع تضع الرسالة؟

– صحيح، أنا لا أنكر ذلك.. من الممكن أن تكون إحداهن قامت بتهديدها لتضع تلك الأوراق، أو أن هناك من كتبها وأجبرها على وضعها..

سأل المحقق بفضول:

– ولماذا لا تجزمين بأن (سارة) هي من كتب الرسائل بالفعل؟

أجابت الفتاة بعد أن توقعت هذا السؤال:

– إنها صديقتي منذ الطفولة، وأكاد أعرف عنها كل شيء أكثر من والدتها.. من المستحيل أن تفعل شيئا كهذا دون سبب، وأنا أعلم أنها ليست الفاعلة.. فكانت دائماً تلجأ إليّ عندما تشعر بالضيق، وهذا وحده كافياً لإبطال الحجة التي تقول بأنها كتبت الرسائل للتفريغ عن الكبت كما تعتقد الفتيات.

تنهد الرجل قبل أن يقول:

– من المؤسف أن أخبرك يا سيدتي بأن الكبت قد لا يكون الدافع الوحيد لنشر تلك الرسائل المجهولة، فنحن لا نعلم الدوافع الحقيقية بعد، ومن الطبيعي أنها لن تخبرك بأنها سوف تضع أوراقا تؤذي الطالبات، أليس كذلك؟

هزت (هند) رأسها إيجاباً، ثم انطلق الرجل سائلاً:

– أخبريني.. هل تلقيت واحدة من الرسائل؟

– كلا.

ابتسم الرجل ثم قال بهدوء:

– لو افترضنا أن (سارة) هي من وضعت الرسائل فبالطبع لن

تقوم بكتابة واحدة لك، هل تعرفين ماذا يعني ذلك؟

– نعم سيدي.

أدركت الفتاة أنه تم تضييق الحصار عليها وأنها فشلت في الدفاع عن صديقتها المقتولة، وما هي إلا ثوان حتى قال الرجل محاولاً إشعارها بالاطمئنان:

– ولكن هذا ليس بالضرورة أنها صاحبة تلك الرسائل، قد تكون هناك أكثر من كاتبة، أو قد تكون صديقتك قد وضعت الأخيرة فحسب.. الاحتمالات مفتوحة كما ترين، وكل شيء وارد في أمور كهذه.

سكتت الفتاة بعد أن انتهت كلماتها ولم تعرف ماذا يجب عليها أن تقول.. وقبل أن يسمح لها المحقق بالذهاب، سألها:

– لقد أخبرتني قبل قليل بأنها أرادت أن تخبرك بشيء هام، هل لديك أي فكرة عما هو؟

– كلا.

– هل ألمحت لك عنه؟

نفت الفتاة ذلك ثم خرجت وتركت المحقق منهمكاً في تدوين الملاحظات.

6

كانت المقابلة التالية مع (دانة) التي بدت هادئة ومسيطرة على انفعالاتها أكثر من سابقتها..

وبعد أن أخبرت المحقق بمعرفتها الضئيلة بالضحية سألها:

– أين كنتِ وقت الجريمة؟

أجابت كما لو أنها تدربت على ما ستقوله:

– كنت في الطابق العلوي في ممر صفوف المرحلة العاشرة.

– وهل كان هناك أحد سواك؟

– (لولوة) كانت تقف في الجزء الآخر من الممر.

– هل يمكنك أن تصفي لي موقعكما؟

اعتدلت الفتاة في جلستها فقالت:

– حسناً.. لقد كنت أنا أقف أمام صفوف المرحلة العاشرة بينما أنظر لساحة العلم من فوق، وكما تعرف.. فإن تصميم الطابق العلوي كان على شكل مربع تقريباً..

فكان على يميني ممر يؤدي لقسم اللغة العربية، وكان به فتاة أخرى من المرشدات.. وأما الممر الذي على يساري فكان به قسم معلمات اللغة الإنجليزية في طرفه، وفي منتصفه مختبرات الأحياء حيث كانت تقف (لولوة)..

سكتت الفتاة قليلاً ثم عادت لتشرح:

– كانت تقف على مسافة قريبة مني ولكن لم أستطع رؤيتها لأنها

لم تكن بجانبي، وإنما كانت في منتصف الممر كما أخبرتك..

ولا أعلم لو أنت ذهبت للطابق الأعلى أم لا، لكن ربما من الأفضل أن أزودك تفاصيل أكثر بشأن المكان..

– أرى أن هذا أفضل..

أخذت نفساً عميقاً، واستطردت:

– فلتساعدني الكلمات على وصف المكان بشكل جيد!..

ملأت رئتيها بالهواء مجدداً، فقالت:

– كما تعلم، فإن كل ممر مستقل بحد ذاته..

فلو وقفت في المكان الذي كنتُ أنا به ستجد على يسارك درج، ولكنه ليس بقريب تماماً.. إذ تحتاج حوالي ثلاثين ثانية للوصول إليه.. وهناك درج آخر بالطبع جهة اليمين، لكنه كان بعيدا عني.. إذ أحتاج للوصول له حوالي دقيقة..

هذا بالنسبة للممر الذي كنت أقف به، أما ممر المختبرات –كما يُطلق عليه – فكان أطول ممر تقريباً في الطابق العلوي.. مما يعني أنك ستمشي مسافة مضاعفة لو أردت الذهاب للدرج..

سكتت قليلاً لترى مدى فهم الرجل لكلامها، فأكملت:

– ولقد كان في ممر المختبرات درجان؛ الأول على يمينه، وهو نفسه الذي كان يساري.. والآخر كان في يسار الممر، وأظن هو الذي جاءت منه الضحية..

وفي هذه الحالة، فإن (لولوة) هي الشخص الوحيد الذي رآها.

صمتت بعد أن انتهت من كلامها بينما كان الرجل يدون بعض الملاحظات في انهماك، فقالت:

– أرجو أن تسامحني بسبب وصفي المربك للمكان، أتمنى لو كان الوصف واضحاً بالنسبة لك.

– لا عليك.

قالها ثم وضع نقطة في مفكرته على عجالة..

رفع رأسه ثم قال:

– إذن أنت تحاولين إعطائي انطباعاً بأن (لولوة) هي القاتلة.

– أنا لا أحاول أتهمها سيدي.. لا أعرف من هي القاتلة ولا أتهم صديقتي بشيء.

أومأ الرجل برأسه متفهماً، فانطلق سائلاً:

– هل تعلمين أن حدوث جريمة قتل في مكانٍ أنت مكلفة في مراقبته وحمايته دليل على عدم كفاءتك بالمسؤولية؟

– أعرف يا سيدي، ولكن هذا ينطبق على جميع فتيات المرشدات أيضاً وليس وحدي.. كما أننا مكلفات في المحافظة على النظام العام وليس منع القتل.. فشيء كهذا ليس من المفترض أن يحدث في مكان للدراسة.

تنهد المحقق قبل أن يقول:

– لنعد مرة أخرى إلى موقع الجريمة.. هل رأيتِ أحداً بالقرب منه؟

ترددت الفتاة لجزء من الثانية، وشعر بها الرجل ثم أجابت:

– أظن أنني رأيت إحداهن بالقرب من المختبر.. لست متأكدة أنني رأيتها، ربما تهيأ لي ذلك..

فقاطعها المحقق وسط "ترددها":

– من التي رأيتها؟

ازدردت لعابها فأجابت بنبرة قريبة من الهمس:

– (أماني)!

سكتت قليلاً ثم قالت بتوتر:

– لست متأكدة أنني رأيتها، فعندما سمعت صراخ أم (سارة) ركضت مسرعةً إليها ولم أنتبه بأي شيء حولي، ولم أتذكر أنني رأيتها إلا بعد أن سألتني!

– هل تذكرين متى رأيتها بالتحديد؟

أطرقت الفتاة برأسها ونظرت للأعلى قبل أن تجيب:

– بعد أن رنَّ الجرس بثوانٍ قليلة، وكان هذا أثناء تجمع معلمات اللغة الإنجليزية في المختبر بسببٍ سماعهن للصراخ.

عاد الرجل ليكتب بعض الملاحظات، وقال بعد لحظة صمت:

– لقد قيل لي بشأن الرسائل المجهولة التي كانت تؤذيكن.. هل تلقيت إحداها؟..

أومأت الفتاة برأسها إيجاباً ثم ذكرت له محتوى الرسالة كما طلب منها.. وبعد ذلك سألها:

– هل تعتقدين أن (سارة) هي من كتبتها؟

– بالطبع، فنحن رأيناها فيما كانت تضع إحداها.

قال الرجل بسرعة:

– ألم تخطر ببالك فكرة أن إحداهن أجبرتها على ذلك لسببٍ ما؟

– صراحةً لم أفكر بشيٍ كهذا من قبل، ولكن لا أعتقد أن هناك من

أجبرها.. فهي نادراً ما تتحدث مع غير صديقاتها، ومن المحتمل أن تكون هي قد وضعتها.. فكما تعلم، لقد نشأت المسكينة في بيئة قاسية ولديها الأسباب الكافية للشعور بالضغط ورغبة إيذاء الآخرين كما جرحوها.

تثاءب المحقق وأمرها بالانصراف ثم ارتشف بعضاً من الماء.

بعد ذلك استدعى صديقاتها (أسماء)، و(مريم)، و(شهد) على التوالي..

وأكدن جميعهن أنهن كن معاً طوال اليوم الدراسي كما أنكرن معرفتهن بالضحية، ولم تزوده أي منهم بشيء مفيد.

7

جلست (لولوة) على طرف الكرسي وبدت مكسورة القلب، حزينة الهيئة، وتملأها الدموع تماماً!..

بادر المحقق بسؤالها:

– أين كنت عندما حدثت الجريمة؟

ارتبكت الفتاة بشكل ملحوظ، ثم أجابت:

– كنت في دورة المياه.

– ولكن قيل لي إنك كنت بالقرب من مختبر الأحياء!

تلعثمت وقالت بسرعة:

– صحيح.. لكن.. في الجزء الأخير من الفرصة ذهبت لأغسل يدي، وبعد أن خرجت.. سمعت صراخاً و.. وجدت الجريمة قد حدثت!!

قالتها ثم وضعت يديها على وجهها وانفجرت باكية..

أخذ المحقق يتأملها قليلاً قبل أن يقول بتعجب:

– هكذا فقط؟!.. ذهبت لدورة المياه ثم عدت لتجدي شخصاً قد قُتِل في مكان كنت بالقرب منه قبل لحظات!..

أجابت بتردد:

– نعم.

– عذراً.. لا أظن أن هذا ممكن!.. فدورة المياه لا تبعد كثيراً عن المختبر، والمسافة بينهما لا تتعدى عشرين خطوة.. وأظن أن أي شخص يسمع بشكل جيد سيكون قادراً على سماع صوت صنبور

الماء عندما يكون في المختبر في حال هدوء المر..

والآن.. كيف حدثت الجريمة في الوقت القصير الذي كنت تنظفين به يديك؟ ولماذا لم تسمعي شيئاً على الإطلاق؟!

تحشرج صوت الفتاة وقالت وهي في حالة يرثى لها من البكاء:

– لا أعلم..

أطال المحقق النظر إليها طويلاً، فقال:

– هل تعلمين كيف قُتلت زميلتك؟..

انشغلت (لولوة) في مسح دموعها وأنفها ولم تجب، فما كان على الأخير إلا أن يكمل:

– لقد وجدنا الجثة ملطخة بالدماء على وجهها وكان أنفها مكسوراً.. بالإضافة إلى وجود آثار ضرب في عدة أماكن، كما وجدنا...

قاطعته الفتاة صارخةً:

– توقف، توقف أرجوك!.. لا أريد أن أعرف أكثر!..

ثم أخذت في البكاء بهستيريا واضعةً يدها على فمها، فقال المحقق متأسفاً:

– أعتذر على إثارة مشاعرك بهذه الطريقة المؤلمة.. لكن من المثير للاستغراب أن الضحية لم تصرخ أو تستنجد على الرغم من كل الضرب الذي تلقته، أليس كذلك؟!

لم تجب الفتاة واكتفت بهز رأسها إيجاباً.. ثم تريث المحقق ثوانٍ فسألها:

– أخبريني.. هل رأيتِ أحداً بالقرب من موقع الجريمة؟

– لا أتذكر.

قالتها فيما تضع يداً على قلبها والأخرى كانت تمسح بها عينيها المنتفختين..

ثم سألها:

– بصفتك أنتِ من وجدتِ الضحية عندما كانت تضع إحدى الرسائل المجهولة، هل فكرت بالانتقام منها؟

– جميع الفتيات فكرن بذلك.

– ولكنني أسألك شخصياً..

طأطأت الفتاة رأسها فيما أخذت تقول:

– نعم..

سكتت لحظة ثم أكملت:

– لكن ليس عن طريق القتل.

أومأ الرجل برأسه، فقال سائلاً:

– وماذا تعتقدين سبب وضعها للرسائل؟

– لا أعرف.

– هل شككت بها من قبل؟

– لا.

أخذ المحقق نفساً عميقاً ثم سألها ما إذا كانت قد تلقت رسائل أم لا.. فأجابته بأنها تلقت رسالتين، وأخبرته بمحتوى كل رسالة بشكل دقيق كما طلب منها.

وبعد ذلك أمرها بالذهاب.

8

كانت المقابلة التالية مع (أماني)..

وقبل أن تدخل اقترحت إحدى المعلمات للمحقق بأن يسمح لها بكتابة ما تود قوله بدلاً من الكلام، وذلك لأنها تعاني من مشكلة بالنطق وتوترها يجعل كل كلمة أصعب من الأخرى..

فأجاب الرجل:

– لا مشكلة لي مع ذلك، أنا شخص صبور يا سيدتي.. ولا أود أن أعاملها بشكل خاص حتى لا يؤلمها ذلك.. لذا فسأحاول تخفيف الضغط عليها بقدر المستطاع.

وبعد ذلك بقليل دخلت وبدت أكثر خوفاً وتوتراً من جميع الفتيات اللاتي قابلهن المحقق!..

وحاول الأخير أن يكون لطيفاً معها.. إذ ظلّ مبتسماً طوال المقابلة تقريباً.. وأعطاها قارورة ماء قبل أن يبدأ بطرح الأسئلة عليها.

وكان أول سؤالاً ألقاه عليها هو مدى معرفتها بالضحية، فأجابت بعد صمت دام لعدة ثوانٍ وصراع مع الكلمات بأنها لم تكن تعرفها كثيراً، وأنها بدأت تتقرب منها في أيامها الأخيرة فحسب، وأخبرته بأن علاقتها معها لم تتعدّ الرسائل النصية والمقابلة القصيرة مع صديقتيها.

وأنكرت معرفتها لوجود عدوّات أو كارهات لها، كما أكدت بأنها لم تتوقع أبداً حدوث جريمة قتل ولا تعرف أي سبب يدعو

لها.

تنهد المحقق قبل أن يقول:

– حسناً يا (أماني).. سمعت بأنك كنت بالقرب من مختبر الأحياء في الجزء الأخير من الفرصة، هل هذا صحيح؟

توقفت الفتاة عن هز قدميها بعد أن علمت أن الرجل قد لاحظ ذلك، وقالت فيما تشد قبضة يدها بقوة:

– أنا لم – لم أدخل المختبر، لقد كنت.. أتوجه إلى الفصل.

مط الرجل شفتيه فقال:

– جيد.. ولكن إحدى الفتيات تقول بأنها رأتك هناك بعد نهاية الفرصة، هل هذا صحيح؟

هزت الفتاة رأسها إيجاباً، فسألها المحقق:

– هل لي أن أعرف ماذا كنت تفعلين؟

– لقد كنت في طريقي إلى الفصل..

قالتها فيما كانت تشعر بانحباس الأحرف داخلها كما لو أنها تختنق.. انتظر الرجل بعض الوقت حالما تلتقط أنفاسها فسألها:

– ولماذا أتيت بعد رن الجرس مباشرة أو في اللحظة التي رنّ بها الجرس؟

– أجابت الفتاة بتأتأة شديدة في بداية كل جملة تنطق بها مع تكرارها لبعض الأحرف بطريقة لا إرادية لم تستطع التحكم بها:

– لقد كنت أصلي في المسجد، و– وظننت أن الجرس قد رن..

ولكن في الواقع.. هو لم يرن، أ- أعني...

توقفت ولم تستطع إكمال كلامها..

شعر الرجل بالشفقة تجاهها وحاول قدر الإمكان ألا ينظر إليها مباشرةً حتى لا يزيد من توترها، وقال لها مهدئاً:

- حسناً، لقد فهمتك.. كنت في المسجد حيث لا يمكنك سماع الجرس بشكل جيد، وظننتِ أن الفرصة انتهت، ولكن عندما وصلت للأعلى رنَّ الجرس مصادفةً.. أليس كذلك؟

أومأت رأسها إيجاباً، ثم قال المحقق مشجعاً:

- جيد.. ولكن لِمَ كل هذا الخوف؟ لو لم تكوني قد فعلت أو رأيت شيئاً فلن تكوني خائفة..

ازدردت الفتاة لعابها وقالت بعد أن احمرَّ وجهها:

- إنني متوترة فحسب..

- معك حق، فهذا طبيعي وسط الأجواء المشحونة بالقلق..

ثم اقترب منها وسألها بنبرة قريبة من الهمس:

- أخبريني، هل رأيت أو سمعت شيئاً عندما صعدت للأعلى؟..

هزت الفتاة رأسها نفياً بعد أن ترددت بوضوح، فقال الرجل:

- لا يعقل أنك لم تسمعي صوتاً على الإطلاق أو أن أنظارك لم تسقط على شيء مريب!.. فبحسب تقديراتي، فإن الضحية كانت تحتضر في الوقت الذي جئت به تقريباً!

ارتعشت الفتاة لا إرادياً وسرت قشعريرة في جسدها، ثم

انطلق المحقق قائلاً:

– لكن بالطبع أنا لا أتهمك بشيء، فحتى الآن لا توجد لدينا دلائل كافية ضد شخص ما.. وتذكري أن الكتمان سيؤذيك أكثر مما ينفعك..

وأنا أعلم أن البوح بأمر كهذا صعب على الجميع، لكن أحياناً يجب علينا التضحية لإظهار الحقيقة المخفية.

ساد الصمت المكان للحظات، ثم طرح عليها المحقق سؤاله الأخير بصيغة أخرى بعد أن لاحظ خوفها الذي أجبرها بالسكوت.. فأخبرته – وبصعوبة – بأنها لم تر ولم تسمع شيئاً.

ثم سألها في النهاية ما إذا كانت قد تلقت إحدى الرسائل، فأمرها بالانصراف بعد أن نفت ذلك.

9

كانت المقابلة التالية مع (غزلان) التي بدت هادئة وأخفت توترها ببراعة..

قالت إنها كانت على معرفة بسيطة بالضحية، ولكن لم تصل معرفتها إلى حد العلم بتفاصيل علاقاتها مع الطالبات..

كما ذكرت للمحقق محتوى رسالتها الغريبة التي وجدتها، ونفت أن تكون إحدى الطالبات قد أوحت لـ (سارة) فكرة كتابة الرسائل أو أجبرتها به، وذلك بسبب اعتقادها أن هناك دافعا وراء تلك الرسائل، وأن الضحية أرادت صرف انتباه الطالبات عن شيء معين.. ولم توضح (غزلان) ما هو هذا الشيء..

علاوة على ذلك، أنكرت معرفتها بأسباب الجريمة وقالت إنها فكرت بالانتقام.. لكنها شدّدت على أنها لو أرادت الانتقام فستكتفي بالإيذاء فقط وليس القتل أو استخدام الأدوات الحادة لأنها تخشى الاقتراب منها.

وقبل أن تخرج أخبرت المحقق عن محتوى الرسالة التي وجدتها الضحية، فتساءل في نفسه لو كانت الضحية هي فعلاً كتبت جميع الرسائل فلماذا تكتب لنفسها رسالة حساسة كتلك وتشتم فيها نفسها بطريقة مؤلمة؟!

وبعد ذلك دخلت (منيرة) التي كانت متوترة ونادراً ما تتواصل بصرياً مع المحقق..

كانت مقابلته معها قصيرة وخالية من الإفـادة.. إذ أنها تكاد لا تعرف شيئاً عن الضحية إطلاقاً، كما أنها كانت مع صديقتها طوال الوقت كما قالت..

وأخبرته كيف أن الجميع شكك بها بأنها كاتبة الرسائل، وكيف أنها كانت سعيدة الحظ عندما علم الجميع ببراءتها..

وبعد ذلك أخبرته بمحتوى الرسالة الغريبة التي تلقتها، فاستغرب الرجل سبب مدح (سارة) – لو كانت هي صاحبة الرسائل – لعائلة (منيرة)!

كتب بعض الملاحظات ثم أمرها بالانصراف.

وبعد دقائق جاءت كل من (لطيفة) و(أمـل).. إذ قابل الرجل كل واحدة منهما على حدة..

كانت مقابلة الأولى هادئة وخالية من أي معلومات مفيدة، وأما الأخرى فكانت جميع إجاباتها التي تتعلق بحياة (سـارة) من هذا القبيل:

– أستغفر الله العظيم، إن الحديث عن الأمـوات بكثرة لا يجوز أيها المحقق!... لقد أمرنا الرسول الكريم بالكف عن ذكر مساوئ الأمـوات، فكيف تريدني أتحـدث عن إيذائها لنا بتلك الرسائل؟... لقد أخبرتك بما يكفي أيها المحقق، لا أريد أخذ أوزار الأموات!

واستمرت على هذه الحال طيلة فترة المقابلة تقريباً على الرغم من إصرار المحقق لمعرفة بالمزيد، وأخذ يكرر عليها بأن هذا لا يعتبر من ضمن أمور الغيبة طالما أنه يدور في نطاق العمل..

وبعد أن ألحَّ عليها – أو بالأحرى أجبرها – بالإجابة على أسئلته

فعلت ذلك بعناد دون أن تفيده بشيء.

أما المقابلة الأخيرة فكانت مع (شيخة) التي قالت بأنها صديقة الضحية منذ المرحلة المتوسطة وعلى معرفة واسعة بها..

كما قالت أيضاً بأنها لا تعتقد أن صديقتها كاتبة تلك الرسائل المجهولة، فسبق أن حدثتها (هند) عن تلك الرسائل والشائعات التي تطلقها، لكن لم تفكر أي منهما بأن (سارة) هي الكاتبة!

ولقد أكدت الفتاة أن الضحية كانت في أكمل قواها الجسدية والعقلية في الآونة الأخيرة.. وربما كانت تعاني من بعض اللحظات الكئيبة، لكن لم تصل إلى الحد الذي يدفعها إلى القيام بشيء كهذا..

كما شددت على أن صديقتها لا يمكن أن تكون قد وضعت الرسائل دون وعي منها.. فالأوراق كانت مطبوعة وقد تكون طُبعت في المنزل، فلا بد أن صاحبتها كانت تتعمد طباعتها ثم إخفاءها في حقيبتها ومن ثم وضعها في الوقت المناسب دون أن يراها أحد.. وكل هذا يتطلب شخصاً واعياً وقادراً وشجاعاً، والضحية كانت تتميز بكل ما سبق سوى بعض الجرأة والشجاعة.

اختلى المحقق (خالد) بنفسه في مسرح المدرسة وراح يفكر بعمق..

تنهد بقوة ثم أخذ يحدث نفسه بصوت منخفض:

– حسناً إذن.. مدة الفرصة الأولى هي 15 دقيقة فقط..

في الساعة 10:11 استأذنت (سارة) من صديقتها للذهاب لقسم الأحياء.

وفي الساعة 10:20 انتهت الفرصة.. هذا يعني أنها أخذت المفتاح وذهبت للمختبر وقُتلت خلال تسع دقائق!..

هل هذا ممكن أصلاً؟!

رفع رأسه متأملاً الهدوء، ثم عاد قائلاً:

– فلنضع تقديرات..

لنفترض أن ذهابها من ساحة الفرصة إلى قسم معلمات الأحياء استغرق دقيقتين كون أن القسم قريب جداً من الساحة، وأما عن صعودها للأعلى...

صمت الرجل قليلاً متخيلاً نفسه يصعد إلى هناك على عجالة، ثم فتح عينيه وقال:

– قد لا يأخذ ذلك أكثر من دقيقتين أيضاً..

هذا يعني أن هناك خمس دقائق أمضتها الفتاة في المختبر!..

ضرب الطاولة بقبضة يده فصاح بانفعال:

– من الذي يمضي خمس دقائق لكي يأخذ محفظة أقلام من طاولة؟؟!..

سحب قارورة الماء من مكانها بعنف وشرب منها قليلاً، ثم قال صارخاً:

– قتل خلال خمس دقائق!.. هذا رائع جداً يا فتيات الثانوية؛ يا فتيات المستقبل!..

مسح وجهه المبلل بالعرق وفتح قميصه قليلاً وأخذ يفكر بهدوء..

في البداية لم يكن يعلم من أين يبدأ بالضبط، خصوصاً أنه لا توجد دوافع قتل معروفة بعد.. وبما أن مسألة الرسائل المجهولة هي التي أحدثت كل الكره بين الطالبات إذن قد تكون هي من تسببت في حدوث الجريمة..

وبعد دقائق من التفكير العميق رأى أن أفضل ما قد يفعله هو وضع الاحتمالات عن كاتبة الرسائل الحقيقية، فبدا له أن من المستحيل أن تكون (سارة) هي من كتبت جميع الرسائل..

فتح مفكرته وبدأ يكتب بسرعة غير مبال بسوء خطه، فكان

أول ما كتبه هو الافتراضات التي وضعها..

الفرضية الأولى: الضحية كتبت جميع الرسائل.

وكتب تحتها: تبدو ضعيفة وغير قابلة التصديق، خصوصاً أنها لا تفارق صديقتها إلا نادراً، فلا يعقل أنها قد كتبت كل رسالة!.. وربما الدليل الوحيد الذي يدعم هذه الفرضية هو كشف (لولوة) للضحية فيما كانت تضع إحداها..

تنهد بقوة قبل أن يكتب بخط يكاد لا يُقرأ:

وبما أن لم ير أحد الضحية سوى فتاة واحدة فهذا لا يعني بالضرورة أنها رأتها، ربما هددتها بأن تتظاهر بذلك لسبب ما، أو أن (لولوة) وضعت الضحية في موقف ثقيل واتهمتها بأنها رأتها بينما الأخيرة لم تستطع الدفاع عن نفسها!..

سكت قليلاً فقال:

– هذه أفكار غريبة جداً، ولكنها واردة!

فتح علبة سجائره وأشعل واحدة ثم كتب:

الفرضية الثانية: هناك من أجبر الضحية على كتابة الرسائل.

وضع سيجارته في فمه وأخذ منها نفساً عميقاً فقال:

– تبدو قابلة للتصديق أكثر من سابقتها.. ولكن المشكلة

هنا هي أنني لا أعرف سبباً يدعو لإجبار طالبة للضحية لكتابة الرسائل.. فكل واحدة منهن مثيرة للشك في هذه الحالة!

زفر بقوة فعاد ليكتب:

الفرضية الثالثة والأخيرة: أن الضحية كتبت بعض الرسائل فقط أو على الأقل واحدة.

ثم كتب تحتها:

أعتقد أن هذه الأكثر قرباً من الحقيقة.. فبغض النظر عمن قد كتب بقية الرسائل، إلا أنني أرجح هذه الفرضية أكثر.. وذلك لأن سيكون من السهل على (سارة) وضع بعض الرسائل أثناء ابتعادها – الذي لا يتكرر كثيراً – عن صديقتها دون أن تلاحظ الأخيرة ذلك، كما أن بعض الفتيات متورطات بشأن الرسائل أكثر منها.. لذا فقد تكون هناك أكثر من كاتبة، وجارٍ تحليل ذلك.

أخذ المحقق يجمع أوراقه المبعثرة ويقرأ بعض ملاحظاته التي كتبها.. وفي هذه الأثناء أنهى سيجارة كاملة، ثم أشعل الثانية وكتب أسماء الطالبات اللاتي يشكك بهن..

فكتب أولاً اسم (طيف)، ووضع بجانبها علامة X كونها لم تتلقَّ أي رسالة، ثم قال في نفسه:

– لا أعلم ما سر هذه الفتاة التي تبدو غامضة طوال الوقت.. أشعر أن عينيها تخفيان سراً هاماً، وسوف يظهر قريباً أو أكشف النقاب عنه بنفسي!..

قالها كما لو كان يتحدى عدواً له!..

ثم أخذ يفكر قليلاً وقال بأن من المستبعد أن تكون كتبت ولو رسالة واحدة، فهي كثيرة الغياب وربما هذا أحد أسباب عدم تلقيها لأي رسالة..

كما أنه لا يوجد سبب يجعلها تلجأ للقتل، فجسدها الهزيل بالكاد يسمح لها أن تمشي دون أن تشعر بالدوار!

ثم كتب بعد ذلك اسم (أسيل)، وسرعان ما قال متذمراً:

– أوه، تلك الفتاة المزعجة!

تنهد بقوة قبل أن يكتب ما يلي:

– تبدو شخصية مثيرة للشك، خصوصاً أنها لم تتلقَّ أي رسالة إطلاقاً على الرغم من كره الجميع لها!..

ولو صحَّت الفرضية الأولى فلماذا لم تضع لها (سارة) أي رسالة؟!

جميل! هذا دليل آخر على بطلان تلك الفرضية.. وفي المقابل، هذا الدليل يزيد من موثوقية احتمال بأن هناك من أجبر الضحية على وضع الرسائل.. وقد تكون (أسيل) هي من فعلت!

أما عن دافع الجريمة فقد تكون أرادت التخلص منها لسببٍ ما، يكفي أن كلا منهما تكره الأخرى كما شعرت..

بالإضافة إلى دراستها للقانون، من الطبيعي أن يكون لديها

بعض المعرفة لإخفاء أدلتها وخبثها!..

ثم فكر المحقق في نفسه قائلاً ببطء:

– أو ماذا لو... لو كانت لديها ميول ذكورية واضطرت لقتلها لسبب ما؟..

فقال مشمئزاً بصوت مسموع:

– يا له من عالم قذر!..

انتقل بعدها إلى (نور) التي قال عنها بأنها تصلح أن تكون ممثلة بارعة وتبدو أذكى من زميلاتها..

كما أنها قوية البنية وخفيفة الحركة، فمن السهل عليها أن تصعد للطابق الأعلى خلال وقت قصير ثم ترتكب الجريمة وتعود دون أن يعرف أحد!..

كما أنها عرفت الكثير عن الطالبات في الوقت القصير الذي عاشته بينهن، وقد يكون هذا "الكثير" أدى للعداوة بينها وبين الطالبات، مما جعلها تكتب الرسائل أو على الأقل واحدة منها..

والمثير للشك هو أن الرسائل بدأت بعد أن أتت لهذه المدرسة، هل هذه مصادفة؟!

ترك المحقق هذا السؤال بلا جواب، وانتقل للتفكير عن

(وسمية)، فقال:

– إنها منفعلة معظم الوقت وتكره الجميع تقريباً دون سبب واضح!..

قرأ بعض ملاحظاته ثم أطرق برأسه مفكراً:

– رسالتها لم تكن ذات شأن، ولم يُذكر فيها سوى بعض الشتائم التي كانت أخف تجريحاً مما تلقته بعض الطالبات.. بالإضافة إلى الدعوة بالهلاك!

صمت قليلاً ثم عاد ليقول:

– من الممكن أن تكون هي التي كتبت الرسالة لنفسها من باب المساواة حتى لا يتم الشك بها..

وبما أنها متسلطة الشخصية كما يبدو، فمن غير المستبعد أن تكون قد أجبرت الضحية، أو هددتها لكتابة الرسالة الأخيرة، أو أن تتظاهر في وضعها.. خصوصاً أنها – أي الضحية – كانت ذات شخصية ضعيفة بعض الشيء وتحت التوتر باستمرار!

توقف الرجل عن التفكير لبعض ثوانٍ، فقال لنفسه بأن دافع الجريمة مجهول هنا.. فعلى الرغم أنهُ لا يعرف سبباً يدعو (وسمية) لقتل (سارة)، إلا أنه أرجح أن ليس من الضروري أن تكون الأولى هي القاتلة، فقد تكون كاتبة الرسائل فحسب..

كل شيء وارد في مدارس الثانوية!

كتب تعليقه السابق على عجالة وانتقل إلى التفكير بـ (هند).. فقال:

– عادةً في الأفلام السينمائية يكون القاتل هو أقرب الأشخاص من الضحية على الرغم من الوضوح التام في الفيلم بأنه بريء تماماً!..

ولكن من سوء الحظ فنحن لسنا في فيلم الآن..

أخذ نفساً عميقاً فيما ينفض سيجارته ثم أخذ يفكر:

– بغض النظر عن الوضوح التام الذي يوحي بأن لها علاقة بالرسائل المجهولة، إلا أن هذه ليست قضيتنا الآن.. فبحسب أقوالها بأن الضحية كانت تتصرف بغرابة وأوشكت أن تخبرها بشيء!..

ماذا يمكن أن يكون؟ هل كانت المسكينة تعرف شيئاً؟ هل كان هناك ابتزاز بينها وبين فتاة أخرى؟..

ولوهلة، تمنى المحقق أن يعود الأموات للأرض ولو ثوانٍ..

ثم فكر قليلاً فقال:

– فليبقوا في سلام، لِم يعودون ويلوثون جسدهم الذي تطهر بمغادرته لهذا العالم؟!

فتح صفحة جديدة في مفكرته وكتب:

(دانة): تكاد لا تعرف الكثير عن الضحية، ولا يوجد سبب

واضح لتقتلها أو تؤذيها.. لكن هذا بالطبع لا يمنع أن تكون هي الفاعلة..

فكيف يمكنها أن تحدق إلى ساحة العلم من فوق بشكل أبله بينما تحدث جريمة قتل على بُعد مسافة قصيرة ولا تشعر بذلك أبداً؟؟!..

وكذلك الحال بالنسبة لـ (لولوة)..

ماذا لو كانت هناك مؤامرة؟..

توقف المحقق عن التفكير قال محدثاً نفسه:

– هذا لا يهم، فسيظهر الحق سواء شاء أم أبى!

نظر إلى أوراقه مجدداً ثم عاد ليقول:

– وأما بشأن الرسائل، فلا يوجد دليل واضح يتهم هذه الفتاة بشيء.. لكن كما قلت بالسابق، كل فتاة مشتبه بها، وقد تكون كتبت بعضها وشتمت نفسها بورقة على عجالة من باب المساواة، كما في حال (وسمية).

وضع نقطة بسرعة وفتح صفحة أخرى كتب بها:

(لولوة): مثيرة للشك بشكل واضح!.. ليس فقط بسبب سرعة انفعالها وغضبها الدائم اللذين يمنعانها من السيطرة على نفسها.. بل أيضاً بسبب تصرفاتها الغريبة في التحقيقات..

فأبسط دليل على وجود الريبة فيها هو انكسارها وبكاؤها

على الرغم أنها لم تكن صديقة الضحية!..

ومن غير المنطقي أن تكون كل ملامح الحزن والتوتر التي كانت – ومازالت – عليها هي بسبب معرفتها بأمر الجريمة فحسب.. فحتى صديقتها لم تتأثر بهذا الشكل!

علاوة على ذلك، كانت (لولوة) أقرب فتاة في المدرسة من موقع الجريمة، من المثير للشك ألا تكون قد سمعت أو رأت شيئاً، إن لم تكن هي القاتلة!

توقف المحقق قليلاً وتساءل عن مدى احتمالية أن تكون الفتاة قد رأت شيئاً وهددتها إحداهن بعدم البوح.. لكنه رأى أن احتمالاً كهذا ضعيف، فلو صحَّ هذا الأمر لما قالت الفتاة بأنها كانت تغسل يديها ولسكتت عوضاً عن ذلك.

– لا أعلم ما سبب انفعالها، ولكنني أعلم بأنها كاذبة!

قالها المحقق في نفسه ثم راح يفكر في (أماني) قائلاً:

– تبدو غريبة أكثر من الغرابة نفسها!.. من الواضح أنها شخصية منعزلة وكتومة بسبب مشكلتها بالنطق، وهذا وحده كافياً ليضعها في محل الاشتباه!

قطع حبل أفكاره فجأة أمر هام خطر بباله للتو..

وضع يديه على رأسه فيما كان يحلل "فكرته الجهنمية"،

وكتب بعد ذلك بعجالة:

– لدي أكثر من شبهة ترجح بأن هذه الفتاة بأنها هي كاتبة الرسائل..

فقال صارخاً كما لو أنه يعاتب نفسه:

– يا إلهي! كيف لم أفكر بهذا من قبل؟!

أخذ يحدث نفسه قائلاً:

– إنها تعاني من مشكلة في الكلام، ولهذا السبب فإنها وحيدة بلا صديقات.. من الواضح أنها تشعر بالنقص، أو الغيرة، أو بأي مشاعر سلبية تجاه زميلاتها.. وكونها مضطربة الكلام فقد تكون هي من لجأت لهذه الرسائل المجهولة للتعبير عن كبتها ولأنها لا تستطيع مواجهة الفتيات!..

وإلا من سيفكر سواها بإيذاء الناس بهذه الطريقة؟!

كما أن من الوارد جداً أن هناك من كان يستهزئ بها، وأراهن على أنها كتبت رسالة لكل طالبة سخرت منها يوماً!

وأما عن القبض على (سارة)، فكما قلت في الفرضية الأخيرة، بأن الضحية لم تكتب إلا بعضها، أو قد تكون كتبت واحدة فقط..

نفث المحقق دخان سيجارته إلى الأعلى، ثم أخذ يفكر:

– وأما عن دافع الجريمة قد لا يتعدى الغيرة من الضحية أو الرغبة في إثبات الذات، ومن المثير للشك وجودها في الطابق

الأعلى، وتحديداً قرب موقع الجريمة.. ناهيك عن صعودها المبكر للأعلى بحسب ظنها بأن الفرصة قد انتهت كما زعمت!

سكت قليلاً ثم قال ببطء:

– إن لم تكن هي الفاعلة فلا شك أنها رأت شيئاً، من المحتمل أنها رأت القاتلة وهي تهم بالابتعاد عن موقع الجريمة!

ارتشف قليلاً من الماء وقرر تأجيل التفكير بشأنها، وانتقل لـ (غزلان) وصديقتها..

كانت الأولى بعيدة عن الشبهات، أو بالأحرى لا يملك المحقق شبهات كافية عنها.. وأما صديقتها (منيرة) فكانت محل للشك بسبب رسالتها الغريبة..

فسبق أن فكر الرجل، ومازال يفكر لماذا وجدت رسالة تمتدح عائلتها؟!..

إن كان هذا يدل على شيء، فقد لا يدل إلا على أنها من كتبت تلك الرسالة!

وفي النهاية تساءل عن مدى احتمالية أن تكون الأم هي من قتلتها..

ولكن على الرغم من إهمالها لابنتها وإمكانية وجود دافع لذلك إلا أنه وجد أن هذا غير ممكن..

فبحسب أقوال المعلمات اللاتي قابلهن بأنهن عندما دخلن إلى المختبر بسبب صراخ المرأة وجدن الفتاة قد أوشكت مفارقة الحياة..

مما يوحي أن الضحية قد توفيت خلال أقل من دقيقتين لو كانت الأم هي القاتلة، وهذا غير ممكن!..

أطفأ المحقق سيجارته وأخذ ينظر للقائمة الطويلة التي وضعها، فقال خائباً:

– سحقاً! يبدو الأمر وكأن كل شخص في العالم قادر على القتل!

1

منذ أن حلت الفاجعة ولم تذق المدرسة الأمان قط..

إذ أصبحت هادئة وكئيبة كما لو كانت مهجورة..

أصبحت كل طالبة تتجنب الأخرى وتخشى البقاء بمفردها.. وعلى الرغم من محاولة المعلمات في بث الراحة والاطمئنان للطالبات بكل الطرق الممكنة، إلا أن الخوف منتشر في كل أرجاء المكان..

ولم يكن هذا الخوف والتوتر قد سادا المدرسة وحدها، بل أخذا يمتدان إلى أرجاء المنطقة السكنية بشكل عام.. إذ انتشر خبر الجريمة في كل بيت ونطقَ به كل لسان..

أخذت جميع وسائل الإعلام بالحديث عن تلك الحادثة حتى لحق العار بمديرة المدرسة والمعلمات وربما بعاملات المدرسة أيضاً!..

وبعد تشويه سمعة ذلك المكان وتكاثر الشائعات حوله وحول المديرة، قررت الأخيرة الاستقالة مباشرةً بعد أن يتم غلق ملف القضية، فلم تحتمل المزيد مما يُقال عنها ويُعتقد..

وكذلك الحال بالنسبة لمعظم الطالبات.. إذ قرر أولياء أمورهن نقلهن لمدارس أخرى لعلها تكون خيراً من هذه..

وكأن القتل هو الجريمة الوحيدة في هذه البلاد!!

2

دخلت معلمة الاجتماعيات الفصل وسرعان ما وجدت الطالبات في حالة يرثى لها..

إذ كنَّ جميعهن في صمت على عكس طبيعتهن المزعجة، وتملأهن علامات الحزن وعدم الثقة..

ولم يعد هناك صداقات في الفصل.. كل واحدة عزلت نفسها عن البقية كأنهن غرباء لم يرين بعضهن أبداً..

وضعت المعلمة أشياءها على طاولتها ثم وقعت أنظارها على مقعد (سارة) الخالي أمامها..

ألقت التحية على الطالبات بصوت متحشرج فيما تكتم الدموع بداخلها..

فلطالما كانت الضحية أول فتاة ترد التحية، وتجلس في أول مقعد يقع على أنظار كل معلمة.. واليوم مقعدها خالٍ بعد أن تركته وذهبت إلى العالم الآخر!

وبهدوءٍ تام.. كتبت المعلمة العنوان والتاريخ على السبورة، وما إن أدارت وجهها حتى لاحظت إحدى الفتيات ممدة رأسها على الطاولة فيما تضغط عليه بقوة..

– هل أنتِ بخير يا (طيف)؟

سألتها المعلمة ولم تجب بحرف.. لم تلاحظ بأن هناك من يحدثها إلا بعد أن نادتها المرأة باسمها عدة مرات..

رفعت الفتاة رأسها بتثاقل، فعادت المرأة لتقول:

– أهناك خطب ما؟

ظلت الفتاة صامتة مجدداً، فما كان على الأخيرة إلا أن تقول:

– يبدو أنك لم تنامي جيداً، اذهبي لتغسلي وجهك يا عزيزتي.

قامت (طيف) بصعوبة واضحة فيما تتأمل المعلمة ملامحها الشاحبة المتعبة..

كان وجهها أصفر لا حياة به، بينما الهالات السوداء تظهر بوضوح تحت عينيها كأنها واد مظلم!..

وما إن وصلت الفتاة إلى الباب حتى وقعت مغشياً عليها!..

علت الصرخات المكان، وتجمعت حولها الطالبات..

أسرعت المعلمة باتجاه الباب ثم مسكت الفتاة بمساعدة زميلاتها..

وبعد أن استطعن رفعها عن الأرض، مسكتها ثلاث طالبات ليأخذنها إلى المرضة..

3

بينما كانت الأحداث السابقة تحدث، كان المحقق (خالد) في موقع الجريمة..

كان قد فحص المختبر سابقاً بصحبة رجال الشرطة، لكن هذه المرة قرر دخوله وحده فيما يفحص كل شيء بدقة..

وبتركيز شديد، أخذ يفحص تفاصيل كل ما تقع عليه عينيه..

فقام أولاً بالبحث في الخزانات التي كانت في طرف المختبر.. حيث وجد فيها بعض أدوات التجارب وأجزاء المجهر، كما وجد أيضاً مجسمات صغيرة لبعض الحيوانات..

كان من الممكن لأي شخص يرى ما سبق أن يكتفي بنظرة واحدة كافية لتريه الصورة كاملة ثم يخرج باعتبار أن كل هذا لا صلة له بالجريمة..

ولكن المحقق (خالد) يعشق الاهتمام بالتفاصيل ويسعى لكشف كل شيء وربطه بالآخر..

وبعد أن انتهى من التفتيش في الخزانات وعلم أنه لم يجد شيئا يثير الشبهات حتى الآن، وقف في منتصف المكان وأخذ ينظر للمنطقة التي

كانت بها الجثة، والتي كانت أمام طاولة المعلمة الطويلة مباشرةً..

حيث وُجدت الجثة متمددة على جنبها الأيمن فيما يتجه وجهها نحو الطاولة ويكاد أن يلتصق بها..

أخذ المحقق يتأمل المكان ويحاول تخيل الكيفية التي قُتلت بها الضحية لبعض دقائق..

وبعد ذلك ذهب ليتفحص أدراج طاولات المختبر التي تجلس فيها الطالبات..

قام بفتح كل درج ولم يجد شيئاً، ثم جلس أرضاً وأخذ ينظر أسفل كل طاولة وكرسي..

وفي معظم الطاولات وجد بقايا اللبان التي يبدو أن وضعتها بعض الطالبات، تجاهل هذا الأمر المقزز واستمر في البحث.

وعندما وصل لإحدى الطاولات الأخيرة لاحظ شيئاً غريباً..

إذ لاحظ أن هناك بقايا لشريط لاصق عريض.. كما لو أن هناك شيئا تمت تخبئته تحت سطح الطاولة عن طريق وضعه في ورق أو ما شابه، ثم إلصاقه بإحكام على الطاولة.. وبعد ذلك تم انتزاعه بعنف وهذا هو سبب ظهور الأثر الواضح للشريط اللاصق!

رفع الرجل رأسه ببطء وأخذ يفكر بعمق، وتساءل ما كان الشيء الذي تم إخفاؤه هنا؟..

إن وجود أثر لشريط لاصق تحت سطح الطاولة هو أمر غير عادي.. قد يكون الأمر مقبولاً لو كانت تلك الطاولة في الفصل، أما المختبر.. فمن الذي يدخله فيما يحضر معه شريطا لاصقا؟.. وتحديداً الشريط العريض!

عرف المحقق بأن آثار الشريط هذا لم تأتِ عبثاً، من الواضح أن هناك من وضعها لإخفاء شيء ما!

وما هي إلا ثوانٍ حتى سمع صرخات الفتيات فيما كنَّ يمسكن بزميلتهن في الممر، إذ صرخت إحداهن انفعالاً لأن (طيف) كانت على وشك السقوط مرة أخرى..

أسرع الرجل نحو الفتيات لمساعدتهن بعد أن أقفل المختبر على عجالة.

4

بعد حوالي ساعة انتهت الممرضة من (طيف) وتوجه المحقق لفصلها بعد أن استأذن من المعلمة الحالية..

– هل لدى إحداكن أي فكرة حول ماذا كانت علة زميلتكن؟

وجه الرجل سؤاله للطالبات فيما كنَّ على استعداد لاتخاذ أي وسيلة دفاعية ممكنة ترقباً للصدمة الآتية..

فاستطرد:

– علمت للتو بأنها تعاني من مرض السكري، لكن ليست هذه مشكلتها..

سكت قليلاً ثم عاد قائلاً:

– هل تودن معرفة حقيقة الأمر؟

صاحت (أسيل):

– بالطبع نود أن نعرف، وإن كنت لا ترغب في البوح فلا تتحدث إذن..

رمقتها المعلمة بنظرة حادة، فتنحنحت الفتاة قائلةً:

– يا حضرة المحقق.

ثم وضعت ابتسامة زائفة على شفتيها..

فقال الرجل:

– لا تقلقي، لن أخرج من هنا قبل أن أخبركن.

سكت قليلاً ليلتقط أنفاسه، فعاد ليقول:

– أتمنى لو كان ما نشهده هو مجرد جريمة في مدرسة الثانوية، لكن من المؤسف حقاً أن أخبركن بأن قضيتنا هذه أكثر تعقيداً وخطراً من القتل!

سألت (بدرية) بانفعال:

– كيف؟!

قالت (نور) فيما تضع يدها على قلبها:

– إنك تقتلنا بأسلوبك هذا.. أظن أنني سأصيب بنوبة قلبية إن لم تتحدث!

قال الرجل بهدوء:

– أنا لست هنا لأؤذي أي واحدة منكن، أرجو لكل من تشعر بالتعب أن تخرج من هنا في حال تأثير كلماتي السيئ عليها..

صرخت (منيرة) فيما تبلل الدموع وجهها:

– ولو خرجنا كيف سنعرف الأمر؟.. لماذا رجال الشرطة لا يختارون أسلوباً جيداً للحديث على الرغم من معرفتهم بعلم النفس وبقية السخافات؟!

انتظر المحقق ريثما تهدأ الطالبات وتصمت الصرخات، ثم تنهد فقال:

– حسناً إذن.. لعل معظمكن لاحظ الغرابة على زميلتكن (طيف)، وهذا ما شعرت به أثناء مقابلتها معي.. وعندما فحصنا دمها قبل قليل وجدناه يحتوي على نسبة مرعبة من بعض المواد المخدرة!..

فتحت (أمل) عينيها لأقصى حد ممكن لاشعورياً، ثم صاحت:

– ماذا يعني هذا؟؟ تقصد مخدرات؟!

– بالطبع.

قالها الرجل فيما كان يهز رأسه إيجاباً..

ثم استطرد قائلاً:

– وهذه المواد المخدرة لم تأخذها من بيتها، وإنما أخذتها من المدرسة..

ما إن قال عبارته السابقة حتى تعالت الصيحات في الفصل.. فإحداهن تقول إن هذا غير ممكن، بينما الأخرى تتهمه بالكذب، وقالت ثالثة:

– كيف بحق الجحيم أن تتواجد تلك القذارة هنا؟!.. يجب أن تتأكد أكثر.. مستحيل أن يحدث كل هذا في مدرستنا، مستحيل!..

أومأ الرجل بيده ليهدئها، ثم استطرد قائلاً:

– لقد تأكدت أكثر، وأخشى ألا يوجد دليل أكثر من فحص الدم.. فالدم لا يكذب، أليس كذلك؟

صمت برهة، ثم عاد ليقول:

– لقد اكتشفنا من خلال عدة بلاغات متكررة بأن هناك جماعة من ذوي السوابق الإجرامية مسؤولة عن عمليات تهريب وتجارة المخدرات والأسلحة إلى البلاد بشكل غير قانوني.. وهم بمثابة "عصابة" كبيرة منتشرة في معظم المناطق، ويترأسهم زعيمهم ويشرف عليهم و...

ضربت (وسمية) الطاولة بقبضة يدها فقاطعته صارخةً:

– لا شأن لنا في تلك العصابة، لماذا تخبرنا بكل هذا؟!

ابتسم الرجل قائلاً ببطء:

– لأنني – وحسب خبرتي المتواضعة – اكتشفت وجود تلك المخدرات في المدرسة، وتحديداً من قبل تلك العصابة، ولا أعلم لِمَ سأخبركن بالأمر التالي، لكن لابد من إعلامكن به حتى تتخذن الحذر والحيطة.. وهو أن تلك المواد يتم إدخالها للمدرسة بواسطة عدة فتيات على تواصل مع تلك العصابة..

وقد يكون دافع الجريمة متعلقاً بهذا، خصوصاً أن الضحية كانت ذكية وقادرة على الاستنتاج وربط الحقائق ببعضها.

صرخت (غزلان) بانفعال:

– لا!.. لا يمكن أن يحدث هذا كله هنا، مستحيل!..

التفتت الرؤوس عليها فيما تكمل صراخها:

– ما هذا الذي يحدث في هذه المدرسة الملعونة؟.. ألا يكفي وجود قاتلة مجهولة بيننا؟!

أخذت تحدق في الطالبات وتوجه صراخها للجميع بشكل عام فيما تنهمر الدموع في وجهها:

– ألم تكفكن ألاعيب الرسائل المجهولة والقتل؟.. والآن توجهتن للمخدرات؟!..

أرجوكن أخبروني بأنني جننت وأتخيل كل ما يحصل، لا أستطيع تحمل المزيد!..

ثم اتكأت على الحائط وأخذت تنحب وتلطم بهستيريا، فأمرت المعلمة بعض الطالبات بأخذها خارج الفصل وإعطائها بعض الماء لعلها تهدأ.

وما إن خرجت حتى تقدمت (لولوة) للمحقق باكيةً، فقالت:

– سأعترف لك بكل شيء، ولا يهمني مستقبلي بعد الآن.. فلأذهب إلى الجحيم!.. أنا أستحق ما سيحدث، وأعترف بذلك!

قالت عباراتها الأخيرة صارخةً بسبب انفعالها، ثم سألها الرجل باستغراب:

– ما بك يا ابنتي؟

طأطأت رأسها وقالت بصوت مرتجف:

أ.. أنا القاتلة!

التفت الجميع نحوها بصمت، ساد الهدوء المكان قبل أن تكسره بعنف:

– نعم أنا القاتلة!.. أعترف بأنني قتلت (سارة)، ولك أن تصدق أم لا!..

ارتفع حاجبا الرجل دهشةً، فسأل:

– وكيف ذلك؟!

أغمضت عينيها اللامعة بالدموع، فصاحت بانفعال:

– رأيتها عندما دخلت المختبر وتبعتها، ثم انهلت عليها ضرباً حتى توفيت!..

من المرجح أنها أصيبت بنوبة ربو عندما ضربتها بقوة.. ولكني لم أقصد قتلها، أقسم لك.. لا أعلم كيف قتلت ولكنني فعلت!

أوه! يا إلهي!!.. ماذا فعلت في حياتي؟ إنني– إنني مجرمة!

قال المحقق بعد أن أطال التحديق فيها:

– هدئي من روعك يا سيدتي، لا علاقة بين الضرب والربو بشكل مباشر، وأنا أعلم أنك لم تقتليها..

قالت صارخةً:

– كيف؟!.. لقد رأيتها تسقط أمامي.. أقسم لك بأنني أنا الجانية، أنا القاتلة!

قال الرجل بهدوء:

– اهدئي أرجوك، كنت سأخبرك بهذا في المقابلة ولكن بكاءك لم يسمح لك بسماعي..

أخذت الفتاة تجفف وجهها من "شلال الدموع" الذي أغرقه

تماماً.. فاستغل المحقق صمتها ثم قال:

– ربما قد تكوني قتلتها بالفعل لو لم تتلقَّ الضحية طعنة على رقبتها.

– ماذا تعني؟

سألته المعلمة بفضول، فأجاب:

– ما أقصده هنا هو أنك لو نظرتِ لجثة الضحية ستجدي عليها آثار الضربات والكدمات، وكان هذا بواسطة بنية قوية.. وفي هذه الحالة نظراً لأقوال (لولوة) فقد تكون هي التي قتلتها بغير عمد كونها لم تقصد القتل، ولكن الضحية لم تمت بسبب تلك الضربات.. إن سبب وفاتها كان جريمة مقصودة وواضحة.

سكت قليلاً ليرى وقع كلماته في الآذان، فأكمل قائلاً:

– وكما تعرفن، فإنها قُتلت بواسطة مشرط التشريح.. وتحديداً عن طريق طعنة – أو إن أردتن الدقة – سأستخدم كلمة شق أو شرخ في الرقبة..

سكت مجدداً عن الكلام، ثم عاد ليقول:

– يبدو أن الفاعلة ذات حظ وافر كما لو أنها تنام على ذهب!.. إذ إن الحظ لم يضعها في أفضل وقت لارتكاب جريمتها فقط، بل أيضاً قادها إلى طريقٍ يشتت كل من يحاول معرفة دافع

الجريمة!..

سألت المعلمة مجدداً:

– ومن هي القاتلة يا حضرة المحقق؟

– قريباً سيتم رفع الستار عنها.

قالها مبتسماً ثم خرج من الفصل تاركاً الفتيات في جو من الرعب والحيرة.

بعد انتهاء أيام العزاء عادت والدة (سارة) إلى المدرسة، حيث استقبلتها المعلمات بالأحضان الحارة والدموع والمواساة على المرحومة..

وبعد أن انتهت منهن اختلى بها المحقق في أحد الممرات ليقابلها..

ألقى الرجل عليها التحية، ثم بادر بقوله مبتسماً:

– أنا سعيد بشأن ما سمعته من أخبار عن طلاقك من زوجك يا سيدتي، وأعدك في هذه المرة لن يفلت من القانون ولن تدافع عنه أمواله.. سيظهر صوت الحق ولن يستطيع أحد إسكاته!

ابتسمت المرأة على الرغم من انتفاخ عينيها ووجهها بسبب البكاء، فقالت:

– كل الشكر لك ولجميع رجال الشرطة، لا أعرف كيف أصف سعادتي عندما أخذتموه مني وحررتموني من طغيانه!

– لا داعٍ للشكر سيدتي، هذه وظيفتنا ونحن مطالبون للكشف عن الشر وتدميره.

تلاقت العينان في صمت دام لعدة ثوانٍ، ثم سألت المرأة بحزن:

– وماذا عن ابنتي؟ هل قبضتم على الفاعلة؟

سقطت دمعة من عينها سهواً، فأجاب الرجل:

– ليس بعد، لكن أستطيع أن أخبرك بأن النهاية قريبة.

تكاثرت دموع المرأة في عينيها وبدأت في النحيب.. ثم قال المحقق:

– إنني متأسف بشأنها يا سيدتي.. ولكن كتب لها القدر أن يتم قبض روحها في ذلك اليوم، وبالطبع لا يمكننا فعل شيء حيال قدر الله..

قاطعته باكيةً:

– لا!.. أعترف بأنني كنت أماً سيئة.. أنا أهملتها كثيراً!..

تنحنح الرجل وبحث عن شيء يقوله، وأخيراً قرر الحديث فنطق:

– ولكن في النهاية لم تكن الحادثة بسببك، ولم يكن الأمر ذنبك.. إنها دورة الحياة يا أم (سارة)، وتذكري بأنك تؤذيها ببكائك عليها.

وبعد قرابة دقيقتين من محاولته لتهدئتها أعطاها بعض المناديل وأشعرها بالأمان، ثم أدار ظهره وذهب في حال سبيله بعد تأكده بأنها على ما يرام.

1

كانت الحصة الخامسة لطالبات الفصل 4/10 هي اللغة العربية، وقد أخذتهن المعلمة لمكتبة المدرسة للقراءة الحرة..

دخل المحقق (خالد) بحثاً عن بعض الكتب هناك، وشاءت الصدفة أن يلتقي بالطالبات، وما إن ألقى عليهن التحية حتى رنَّ الجرس وخرج معظمهن..

في هذه الأثناء كانت (أماني) تهم بتجميع أشيائها من الطاولة، وما كادت أن تقف حتى اقترب الرجل منها مبتسماً فيما يقول:

– آمل أن تكوني بأفضل أحوالك سيدتي.

اكتفت الفتاة بالصمت وابتسمت، ثم سألها:

– أيمكنني الجلوس؟

– نعم..

قالتها بصوت يكاد يكون غير مسموع..

فسحب الرجل كرسياً وجلس أمامها مبتسماً مجدداً، ثم وقعت عيناه على أحد الكتب التي كانت على الطاولة.. فسأل ثانيةً:

– هل أنت من اختار هذا الكتاب؟

هزت الفتاة رأسها إيجاباً وسرعان ما أبدى المحقق إعجابه قائلاً:

– هذا رائع! لم أكن أعلم بأنك من محبي حكايات (شهرزاد)..

أطرقت الفتاة برأسها خجلاً واستمرت في الابتسام بينما احمرَّ وجهها بشكل ملحوظ..

فقال المحقق:

– اسمعي.. أنا لست هنا من أجل المقابلات الآن، لقد انتهيت من كل المقابلات ولا مزيد من الأسئلة بحوزتي.. كل ما في الأمر هو...

سكت عن الكلام فجأة بسبب صراخ بعض الفتيات مرحاً.. إذ كنَّ يقرأن رواية رومانسية وأثارت كل واحدة منهن الفوضى في المكتبة!..

ومن سوء الحظ أن الآن هو وقت الفرصة الثانية.. لذا لم تستطع المعلمات إيقاف إزعاجهن لهذا السبب، وأيضاً بسبب وجود المحقق في المكان.

نظر الرجل إلى الفتيات بشيء من الشفقة، ثم عاد ليقول:

– لقد أخبرتني معلمة اللغة العربية الخاصة بفصلكن عن موهبتك في الكتابة، من الواضح أنك مبدعة ومتقدمة على أقرانك، وهذا هو سبب وجودي هنا..

سكت قليلاً ليرى تأثير كلماته عليها، ثم قال:

– ما رأيك أن تكتبي لي شيئاً؟

وبصعوبة واضحة، سألته:

– مثل ماذا؟

– أي شيء تفكرين به..

قالها مبتسماً، ثم أضاف هامساً:

– وسأكون سعيداً لو كان ذا علاقة عن بعضٍ مما تعرفينه من أسرار..

غمز بإحدى عينيه، ثم عادت إحدى الفتيات للحديث بصوتٍ عالٍ قائلةً لصديقاتها:

– "أوف، يلا امشوا الحين تخلص الفرصة وأنتوا بعدكم على هالرواية!".

صاحت عليها (دانة):

– "لحظة يا (أسماء) أنتي ما تصبرين؟! بس أبي أعرف أحداث النهاية"..

فقالت (مريم):

– "إي والله حتى انا اندمجت مع هالكتاب، تعالوا شوفوا شنو صار بالمسكينة"..

ثم أخذت (شهد) تسخر من صديقتيها قائلةً بأن على الرغم من قراءتهما الكثيرة للقصص إلا أنهما مازالتا بنفس مستوى الغباء!..

تجاهل المحقق صراخهن، وقال محدثاً (أماني):

– لدي نظرية تقول بأن الأشخاص الأقل كلاماً هم الأكثر إبداعاً في استخدامهم للكتابة.. وإلى الآن نظريتي صحيحة ولم أر ما يناقضها..

سكت ليلتقط أنفاسه، ثم استطرد:

– وأنا على تمام المعرفة بأنك مبدعة في استخدام اللغة شفهياً أيضاً، لكن فقط لو استطعتِ التخلص من التوتر وتقليل اهتمامك بتعليقات الناس عنك..

سكت مجدداً بسبب صراخ إحدى الفتيات الفجائي على صديقاتها:

– "أوف! وبعدين معاكم راح تطلعون وإلا لا؟!".

التفت المحقق على (أماني) مرة أخرى فقال:

– حدسي يخبرني بأن في جعبتك الكثير مما تريدين البوح به، سواء لي شخصياً أم لغيري..

واعلمي يا ابنتي أن لا شيء يقتل الإبداع سوى الكبت المستمر.. وإنني أتحرق شوقاً لقراءة شيء مما تكتبين، فأنت لا تعلمين كم قد

ابتسمت الفتاة في سعادة بينما كان الأخير يهم بالوقوف، فقال:

– على أي حال، اكتبي ما شئت دون قوانين أو قيود، ولا أضع عليك موضوعاً واحداً لأنني أريد أن أرى لمساتك تنساب بحريةٍ..

ثم أخذ بعض حاجاته التي كان قد وضعها في الطاولة وقال أخيراً:

– وآمل أن تحتفظي بما سوف تكتبينه حتى أراه في أقرب وقت أراك به..

أومأت الفتاة برأسها، ثم ألقى الرجل عليها السلام وخرج من المكان.

2

بعد انتهاء اليوم الدراسي كانت (أماني) في طريقها للعودة إلى منزلها سيراً بعد أن تجاوزتها الحافلة بسبب تأخرها في توضيب أغراضها..

أخذت تتذكر وتفكر بما أخبرها به المحقق في المكتبة بينما تمشي في طريق ضيق "داعوس" وبعيد عن الأعين..

وسرعان ما شعرت بالتوتر المفاجئ عندما فكرت بشأن الرسالة التي سوف تعطيها له..

لم يكن توترها بسبب موضوعها فحسب، بل أيضاً بسبب غرابة ما طلبه منها..

فلماذا يريدها أن تكتب شيئاً؟ ولماذا لم يختر الموضوع؟..

لا شك أنه مشتبه بها في أمر ما، أو على الأقل سوف يقارن بين أسلوبها وأسلوب الرسائل المجهولة!..

هكذا فكرت (أماني) في داخلها، ولكن حاولت أن تهدئ أفكارها قليلاً.. فأكدت لنفسها بأنه لا يريد شيئاً سوى أن يرى استعراض "عضلاتها الكتابية"..

وما هي إلا ثوانٍ حتى تجاهلت الأمر برمته..

وذلك بسبب أصوات غريبة كانت تسمعها خلفها.. يبدو أن هناك صوتا ما، لكنه غير واضح تماماً..

أصبحت خطواتها أكثر تثاقلاً وبطئاً، فكرت أن تستدير قليلاً لكن شيئا في داخلها أجبرها على الاستمرار في المشي..

حاولت أن تتجاهل ذلك الشعور..

فقد يكون الصوت سببه أوراق الشجر المتكسرة والمتناثرة..

خففت من خطواتها بعد أن اشتعل وسواسها، ولوهلةٍ.. بدا لها الأمر بأن ذلك الصوت لم يكن حفيفاً ولا طيراً!..

أخذت تحدث نفسها لتهدئ توترها:

– حسناً يا (أماني)، هدئي من روعك قليلاً.. أنت في نهاية الطريق الضيق هذا وبعد ثوانٍ سوف تسلكين طريق الشارع المفتوح، مما يعني أنه لن يؤذيك أحد لأنّ الشارع مزدحم بعض الشيء..

ازدردت لعابها بينما كان قلبها ينبض بعنف..

وما هي إلا لحظات حتى تلقت جسماً صلباً على رأسها تسبب في سقوطها أرضاً!..

خارت قواها وسال الدم من رأسها، وبلحظةٍ واحدة فقدت وعيها!

3

كان المحقق يتذمر في سيارته بسبب الازدحام الذي جعله يتوقف حوالي ساعة دون أن يمشي متراً واحداً!..

كان يستمع إلى بعض الموسيقى لكسر الملل، وفجأة جاءه اتصال هاتفي من مديرة المدرسة..

التقط السماعة مجيباً:

– مرحبا..

قاطعته المرأة باكيةً وصارخةً في آنٍ:

– سيدي، عليك أن ترى هذا.. عليك أن تأتي إلى المستشفى حالاً!

– ما الذي حدث؟!

قالها صارخاً بانفعال، ثم أجابت المرأة:

– يا إلهي!.. لقد – لقد طفح الكيل!!..

لا أستطيع أحتمل المزيد، أرجو أن تأتي الآن!

ثم قالت له العنوان بسرعة، فأجاب:

– حسناً.. سوف أكون هناك بأي لحظة، أعدك.

أغلق كل منهما المكالمة وراحت هي تستمر في بكائها بعد أن تركته حائراً بأفكاره!

4

دخل المحقق (خالد) المستشفى راكضاً بأقصى سرعة ممكنة..

وعندما وصل إلى المكان المنشود وجده مزدحماً بالنساء والرجال، الذين كانوا أقارب كما بدا له..

ووجد أيضاً مديرة المدرسة التي سرعان ما انفجرت باكيةً عند رؤيتها له..

سألها عما حدث ولماذا استدعته، لكنها لم تجب سوى بكلمات متقاطعة وهمسات غير واضحة:

– يا إلهي... حدثت مرة أخرى.. وجدناها قرب المدرسة و... التي تدعى.. (أماني)!..

ثم تركها تحدث نفسها وذهب ليسأل أحد الأطباء بعد أن أخبره بأنه من رجال الشرطة، فأجاب الطبيب:

– يبدو أن أحدهم قذف عليها حجراً كبيراً أدى إلى تهشيم رأسها مما تسبب بالنزيف الداخلي والخارجي معاً.. وبحسب تقديراتي فإنها توفيت خلال ساعة تقريباً، وعندما وصل فريق الإسعاف وجدوها في لحظاتها الأخيرة ولم تنفع محاولاتهم لإنقاذها.

ثم اقترب أحد رجال الشرطة من المحقق وأعطاه ورقة قائلاً:

– سيدي، لقد وجدنا هذه الورقة في حقيبتها.. ويبدو أنها كُتبت لك.

فأخذها الرجل وقرأ عليها:

"إلى المحقق (خالد)..

تحية طيبة وبعد..

أنا الآن أجلس على مقعدي قبل مجيء معلمة الحصة السادسة إلى الفصل..

وكما تعرف، الطالبات يثرن الفوضى قبل دخول المعلمات، ولا شك أن إحداهن سوف تقع أنظارها عليّ فيما أكتب الورقة هذه، أو ربما إحداهن تحدق بي الآن!..

على أي حال، سوف أختصر..

في يوم مقتل (سارة) عندما كنت في الطابق العلوي، رأيت (أسيل) تخرج من مختبر الأحياء، وكانت يداها ملطختين بالدماء!.. لا شك أنها هي القاتلة!

أشعر بإحداهن تقترب مني، إنني أضع الورقة على الطاولة مباشرةً.. من الممكن أن يقرأ كلماتي أي أحد خلفي، و..."

انتهت الرسالة فجأة بعد أن تعثر الخط بشكل واضح!..

كانت الورقة بيضاء من حجم A4، والخط متعرج مائلاً إلى الأعلى ويبدو أن يديها كانتا ترتعشان لحظة كتابتها تلك الرسالة!

طوى المحقق الورقة ووضعها في مخبأة ملابسه بينما كان يتنهد بقوة...

في اليوم التالي..

بعد تقديم النعي في طابور الصباح وصدمة الجميع من معرفة خبر الوفاة المفاجئ، أخبر المحقق مديرة المدرسة بأن لديه "مفاجأة صغيرة" كما أسماها، وطلب منها أن يجتمع معها وطالبات الفصل 4/10 بالإضافة إلى جميع معلماتهن ووالدة (سارة)..

على أن يكون ذلك في مسرح المدرسة في حضور الجميع دون استثناء..

توجهت الفتيات إلى المكان كما لو أنهن متوجهات إلى الجحيم!..

إذ بدا المسرح حاراً وجافاً، والتوتر يقبض على الهواء ويعدمه من الوجود..

وبعد اجتماع الجميع، قال المحقق فيما تتجول أنظاره حول الطالبات:

– لعلكن تتساءلن عن سبب وجودكن هنا، فكما تعلمن...

قاطعته (وسمية) سائلةً:

– هل عرفت القاتلة بعد؟

قالتها بخبث كأنها تشمت به، فأجاب:

– أرجوك لا تستعجلي سيدتي، سيظهر كل شيء في الوقت المناسب.

بعد ذلك قال إن لابد قبل البدء بأي شيء أن يخبرهن كيف كانت وضعية جثة (سارة) في المختبر، ووصف ذلك لهن بدقة وأعلمهن بأن الطعنة التي تلقتها الضحية في رقبتها كانت مائلة على شكل (\).

وبعد أن انتهى رسم ابتسامة عريضة على شفتيه وأخذ يتجول في المكان ذهاباً وإياباً فيما يقول:

– أود إعلامكن بأننا قبضنا ليلة أمس على بعض أفراد العصابة التي أخبرتكن عنها.. إذ وجدناهم يتجولون في سيارة بيضاء مسروقة، كما أخذنا منهم ما كانوا يتاجرون به بالإضافة إلى بعض المعلومات التي ساهمت في حل هذا اللغز..

سكت قليلاً ثم نظر إلى إحدى الفتيات فصاح:

– (منيرة)..

رفعت الفتاة رأسها فجأة، وأكمل:

– هل لديك أخ في السابعة عشر من عمره؟

– نعم سيدي.

قالتها بصوت متحشرج يكاد لا يُسمع، فقال الرجل للحضور:

– يؤسفني أن أخبركن بأن آخ هذه الفتاة تم القبض عليه من بين تلك العصابة بتهمة تهريب المخدرات وتوزيعها على بعض المساكين لتعاطيها، ومن ثم إجبار المتعاطي على نشر هذه السموم بين أكبر عدد ممكن من الناس!..

وبهذا نشروا الفساد، ووقع الكثير في فخ الإدمان مثل زميلتكن (طيف)..

طأطأت الفتاة رأسها فيما تتعالى علامات التعجب والهمسات..

علا صوته الأصوات التي ملأت المكان فيما يقول:

– ولقد اعترف لنا الشاب بأنه على علاقة مع إحدى الفتيات هنا.. وبحسب استنتاجاتي البسيطة توصلت إلى أنها كاتبة الرسائل.. وعلى ما يبدو أن هذا هو سبب مدحها لعائلة الفتاة..

أثارت أصوات الفتيات وصيحاتهن بعض الفوضى، فأشار الرجل بيده ليسكت الجميع، ثم قال:

– والآن، فلنترك هذا الموضوع يا سيداتي ولننتقل لآخرٍ، ألا وهو موضوع الرسائل المجهولة..

سكت ليلتقط أنفاسه ثم عاد مكملاً:

– أظن أنني كشفت سرها وعرفت أسباب كتابتها..

– حقاً؟!

– وكيف عرفت؟؟

– من التي كتبتها؟..

تكاثرت أسئلة الفتيات وتداخلت أصواتهن ببعضها.. انتظرهن الرجل حتى يهدأن، ثم قال:

– لن أخبركن من التي كتبت الرسائل الآن، سأبدأ أولاً بالأسباب طالما أنني على ثقة تامة بها..

أخذ نفساً طويلاً، فاستطرد:

– لقد فكرت طويلاً بهذا الشأن، وتوصلت إلى أنه لم يكن هناك سبب واحد فقط لكتابة تلك الرسائل وإيذائكن بهذا الشكل.. وإنما كانت هناك عدة أسباب..

لعل كاتبة الرسائل كانت تسعى إلى بث الكراهية والحقد بين الطالبات، وهذا ما حدث فعلاً..

فلو تلاحظن.. لقد بدأت الرسائل الأولى بشكل بسيط، كانت لا تحمل أي معنى سوى أنها ورقة عليها بعض الكلمات ومرسلة من قبل شخص مجهول..

وتدريجياً، بدأت تتجه للشتائم ومن ثم إفشاء الأسرار وإطلاق الشائعات..

فالأمر تم تخطيطه بدقة، ومن الأرجح أنه كان لديها بما أشبه بالخطة الدقيقة التي تسير وفقها...

ولو كانت الكاتبة تريد أن تلمح عن شيء محدد في الرسائل لفعلت منذ أول رسالة.. وهذا يدل على تنفيذها لمخطط ما لعدة أسباب..

صمت ليلتقط أنفاسه، فأكمل:

– والدافع وراء كل هذا سلب الأمان من الفصل وتكوين حالة من الفوضى بحيث لا تثق طالبة بالأخرى، وتكون كل واحدة تشك بالبقية بأنهن مسؤولات عنها.. وبالطبع هذا سيفتح الباب أمام الكثير من المشاكل كما حدث، مما يسهل على الكاتبة أن تفعل ما تشاء بسهولة..

سكت للحظة قبل أن يعود للقول:

– كما أنني لاحظت في بعض رسائلكن – حسب ما قيل لي – بأنها تهدد بالإفشاء عن أي شيء غريب أو مريب، ومن الواضح هنا أنها تحاول التهديد بشكل غير مباشر..

فقد لجأت الكاتبة إلى تهديد الجميع وإسكات كل من تشعر بأنه سيكشف شيء مما تفعله..

ولعلها تكون في رسائلها هذه تحاول تشتيت الفتيات – وربما إدارة المدرسة أيضاً – بحيث تسعى كل منهما في الكشف عن صاحبة الرسائل بدلاً عن محاولة معرفة ما كان خلف الستار..

سألت (وضحة):

– ماذا تقصد بخلف الستار؟

– أقصد المخدرات التي كانت تباع هنا ولم يعرف عنها أحد.. وأعلم أن ما سأقوله قد يبدو غير قابل للتصديق، ولكن كاتبة الرسائل وقاتلة الفتاتين هي ذاتها نفس الشخص، وهي أيضاً أحد أفراد العصابة!

شهقت الفتاة وتبعها البقية في الشهقات والدهشات..

ثم قال المحقق:

– والآن قبل أن أنتقل للحديث عن موضوع آخر، سأريكن الدليل الذي يثبت وجود تلك المخدرات في المدرسة، وتحديداً في مختبر الأحياء..

سألت إحدى معلمات تلك المادة باستغراب:

– وكيف تدخل تلك المخدرات في المختبر؟! إننا نبقيه مغلقاً طوال الوقت!..

قال الرجل بهدوء:

– سأخبرك..

أخذ يتجول في المكان مرة أخرى فيما يقول:

– إن هذا أسهل مما تتوقعين يا سيدتي..

إذ إنني رأيت بنفسي بعض المعلمات تأمر طالبة ما لتحضر بعض أشيائها من القسم، وأحياناً تدخل الطالبة القسم فيما يكون خاليا ولا يتواجد أحد فيه.. ونفس الأمر قد يكون حدث مع مختبر الأحياء، فيمكن للطالبة أن تفعل أي شيء هناك دون علم أحد..

ولقد رأيت ذات مرة إحدى المعلمات تهم بالخروج من غرفة الرسم بعد انتهاء الحصة تاركةً الطالبات خلفها، على أن تقفل إحداهن الباب وتعطيها المفاتيح..

علاوة على ذلك، قد تفعل إحدى الفتيات كما فعلت (سارة) وتدعي أنها نسيت شيئا في المختبر، وعندما يُسمح لها بالذهاب هناك سوف تتمكن من فعل ما تشاء!..

صمت قليلاً ثم قال:

– دعوني أُرِكنَّ شيئاً..

أخرج هاتفه ورفعه لمستوى أعين الجميع بعد أن فتح ألبوم الصور، فقال:

– ما ترونه في هذه الصورة هو أثر لشريط لاصق وجدته على ظهر إحدى طاولات المختبر..

فمن الواضح أن هذا كان المكان المؤقت لإخفاء المخدرات.. فكما تعلمن، المختبرات لا يتم فتحها سوى بوقت الحصة وتبقى مقفلة طوال اليوم.. والطاولات عريضة بحيث تسمح أن يتم

إخفاء شيء فيها بهذه الطريقة دون ملاحظة أحد، ويبدو أن هذه فكرة عبقرية بحق!.. إذ إن المختبر مكان آمن بالفعل لإخفاء أشياء كهذه سراً، ولولا بحثي الدقيق لما وجدت هذا الأثر!..

سألت (نور) بنبرة متهجمة:

– وكيف عرفت أنه كانت هناك مخدرات؟ ممكن لأي فتاة تعبث بالشريط اللاصق وتضعه تحت الطاولة، ومن المحتمل أن تكون رأتها المعلمة ووبختها فأزالته..

– وهل سألت نفسك كيف ولماذا يدخل شريط لاصق عريض إلى المختبر؟؟..

لم ينتظر جوابها، بل استطرد موضحاً:

– عزيزتي، إن شريطاً لاصقاً كهذا لا يكفي أي محفظة أقلام، لذا من غير المنطقي تواجده بين أقلام إحدى الطالبات... ولو شددته لتقطعي منه سوف يحدث صوتاً عاليا ويجعل الجميع يلتفت عليك، فكيف تقولين بأنه قد تكون هناك من عبثت به؟!..

لو كنت تقصدين أن من وضعته فعلت ذلك أثناء الحصة، فأنت مخطئة تماماً.. لأنه سيحدث ضجيجاً كما أسلفت القول، علاوة على ذلك.. ما الدافع لإدخال هذا الشريط اللاصق في المختبر؟!..

سكت قليلاً بعد أن أدرك أن ليس للفتاة شيء لتقوله، فتوجهت أنظاره على الجميع فيما يستطرد:

– من الواضح أن نظريتي صحيحة ولا يشوبها أي نقص.. فالتي ألصقت هذا الشريط وضعته بهدف إخفاء شيء ما، وتحديداً أثناء وجودها وحيدة في المختبر.. وقد يكون ما خبأته هو ظرف أو ما شابه يحتوي على تلك المخدرات، سواء كان المخدر نوعه حقن أو مسحوق..

وأعلم أنها ليست أول مرة أفاجئكن بشيء، ولكن ما سأقوله قد يكون صادماً للبعض، خصوصاً لمن كان يعرف (سارة) جيداً..

تعالت بعض الأصوات التي تتوسله بأن يختصر ما يريد إخبارهن به وأن يعلمهن به بسرعة..

فوقف منتصف المكان قائلاً:

– كل من أخبرني بأن (سارة) كانت تريد أن تأخذ محفظة أقلامها من المختبر هو مخطئ مع الأسف.. أعلم أن محفظة الأقلام كانت هناك بالفعل، لكن ليس هذا سبب ذهابها الفعلي هناك..

أو قد تكون الفتاة تعمدت أن تترك المحفظة حتى تكون لها الحجة في الذهاب...

قاطعته والدتها سائلةً:

– هل هذا يعني أنها كذبت؟..

– قد تكون كذبة بيضاء لا أكثر..

تدخلت (هند) بغضب:

– مستحيل!.. (سارة) لا تكذب أبداً!

قال الرجل بهدوء:

– إنها لم تكذب بمعنى الكلمة، لقد فعلت ذلك لسبب نبيل، وهذا هو سبب تصرفها الغريب وتوترها كما أخبرتني..

وضع يديه خلف ظهره وأخذ يتمشى بعض خطوات، ثم قال:

– القصة حدثت كالتالي...

كانت (سارة) تعرف بأمر المخدرات التي كان يتم إدخالها في المدرسة، ولعلها هددت صاحبتنا بالإفشاء عن هذا الأمر.. ووسط الضغط والتوتر عرفت المسكينة أنها لن تستطيع إخبار أحد، وإن فعلت فلن يتم تصديقها..

ومن الواضح أنها عرفت بشأن ما كان مخبأ في المختبر، لذا عمدت إلى ترك محفظة أقلامها هناك حتى تذهب لتأخذ المخدرات وتتخلص منها، أو تقدمها كدليل في حال لو أخبرت أحدهم..

ويبدو أن هذا سبب إصرارها على ذهابها لوحدها هناك.

بلع ريقه ثم أضاف:

– وعندما دخلت المسكينة هناك لم تعلم بأنها ستواجه (لولوة) التي كانت تفكر بالانتقام منها.. لقد ضربتها الفتاة

حتى أسقطتها أرضاً، ثم خرجت لتغسل يديها كما أخبرتني..

نظر إليها مبتسماً وقال هامساً:

– اعلمي أنه حتى لو لم تغسلي يديك فعلاً، فنظريتي ستبقى صحيحة!..

قالها بثقة وانتصار..

ظلّ صامتاً عدة ثوانٍ يتأمل وجوه الفتيات فيما كن يسألنه ماذا حدث بعد ذلك.. فقرّر الحديث أخيراً، وأجاب باختصار:

– ثم دخلت القاتلة وقتلتها..

سألت (أمل):

– هكذا فقط؟!.. وكيف عرفت؟..

وقالت (غزلان) بنبرة متسلطة:

– اعذرني أيها المحقق، تبدو استنتاجاتك ضعيفة بعض الشيء.. كيف عرفت أن (سارة) لم تذهب لتأخذ محفظة أقلامها؟!..

أجاب سائلاً:

– ومن الذي يأخذ محفظة أقلامه خلال خمس دقائق؟!..

لو كان ذلك السبب الفعلي لدخولها المختبر لاستغرقت ثواني

قليلة بحيث لا يكفي الوقت لـ (لولوة) أن تدخل المختبر لتضربها عدة مرات!..

سكت لوهلة، ثم أكمل:

– لقد وجدتُ محفظة أقلامها عند مقعدها فيما كانت الجثة ملقاة أمام طاولة المعلمة، مما يدل على أنها لم تقترب منها أصلاً.. كما أن وجود الجثة بعيداً عن محفظة الأقلام يدل على أن استنتاجاتي صحيحة.. فهي دخلت متوترةً، وهذا سبب وقوفها أمام طاولة المعلمة في منتصف المختبر.. إذ إنها كانت تتفحص المكان على ما يبدو، أو تحاول تخمين مكان الطاولة المنشودة..

ثم دخلت (لولوة) فجأة و"هجمت" عليها ضرباً، فسرعان ما سقطت بسبب تعبها وربما بسبب الربو كما قيل لي..

ولا أظن أن هناك خطأ في نظريتي هذه، إذ إنني أتفحص الافتراضات وأدرسها جيداً قبل أن أعتمدها.

ساد الهدوء المكان عدة ثوانٍ، ثم قال المحقق:

– أما بالنسبة للقضية الثانية؛ وفاة (أماني).. فإنني تأكدت فيها عن هوية الفاعلة بشكل أكثر دقة..

فمن الواضح أنها – أي (أماني) – عرفت شيئاً عن الجريمة الأولى، ونظراً لمشكلتها في النطق لم تستطع البوح بالأمر في مقابلتها..

ولقد عرفتُ ذلك من خلال قراءتي للغة جسدها وملاحظاتي

لتصرفاتها..

تنهد بقوة ثم أكمل:

– ولقد عثر رجال الشرطة على رسالة في حقيبتها كان من المفترض أن تقدمها لي لو لم تُقتل..

ثم أخبرهن الرجل بقصة تلك الرسالة ومحتواها أيضاً، وسرعان ما صاحت (أسيل):

– هذا كذب!.. لماذا تكتب عني شيئاً كهذا؟!.. أنا لم أقتل (سارة) ولم أكن قرب مختبر الأحياء أبداً!

– هدئي من روعك يا ابنتي..

قالها بنبرة هادئة، ثم وضع على شفتيه ابتسامة واسعة وقال:

– لقد كانت تلك الرسالة مزورة...

تعالت الأصوات متعطشةً في معرفة المزيد وسائلةً عن قصده في وصفه للرسالة بأنها مزورة..

وبعد لحظات أجاب:

– كما أخبرتكن.. فتلك الرسالة كانت تقول فيها (أماني) بأنها تجلس في الفصل وتكتب الورقة فيما كانت على طاولتها، وكل هذا قابل للتصديق حتى الآن...

لكن خط الرسالة كان متعرجا ومرتعشا بشكل ملحوظ، من الواضح أن الورقة لم تتم كتابتها على الطاولة كما تدّعي تلك الرسالة.. وذلك لأن جميع طاولات الفصل ناعمة السطح وتظهر الخط دون تعرجات، بينما خط الرسالة كان على العكس من ذلك تماماً..

وأعلم أنه قد يكون التوتر سبَّب رجفة في يدها، لكن التعرجات والإنحناءات كانت واضحة وعلى وتيرة واحدة.. مما يدل على أن تلك الورقة كُتبت على طاولة ذات سطح خشن، وممكن أن يكون ذلك في اي مكان عدا الفصل..

ازدادت حيرة الفتيات ودهشتهن وغرابتهن بسبب ما كان يقول المحقق، فهذه تفاصيل دقيقة لم يعلمن كيف لاحظها الرجل.. وعلقت إحداهن قائلة بأنهن يجهلن ملمس الطاولات التي يجلسن عليها منذ قرابة سنة بينما هو لاحظ الفرق خلال أقل من شهر!

وبعد انتظار طويل، بادر المحقق بقوله:

– والآن.. أظن أنه الوقت المناسب لأخبركن بشيء..

صمت قليلاً ثم عاد ليقول:

– في الواقع، لم تكن مسألة كتابة الرسائل صعبة إطلاقاً على طالبتين فقط..

وبعد استنتاجاتي توصلت إلى أن واحدة منهما هي التي

كتبت جميع الرسائل باستثناء الأخيرة..

ثم وقف أمام (فاطمة) فيما يقول:

– حيث إن الرسالة الأخيرة قد كتبتها (سارة) بالفعل، وأظن أنها كتبتها بنفسها دون أن يجبرها أحد.. لكن شاءت الأقدار أن تتم رؤيتها ومن ثم سوء الظن بها على أنها صاحبة جميع الرسائل..

أخذ نفساً عميقاً ثم أكمل:

– لقد تساءلت عن سبب تلقي (لولوة) رسالتين بينما الجميع تلقى واحدة فقط.. وبعد مقارنة بسيطة اتضح لي أن كاتبة الرسالة الأولى لم تكن ذاتها الثانية، ومن الواضح أن (سارة) استخدمت أسلوب النصح فيما كانت تحاول تقليد أسلوب المجهولة..

ثم التفت إلى الفتاة وسألها:

– هل لديك فكرة عن سبب نصحها لك يا (لولوة)؟

هزت الفتاة رأسها نفياً، ثم قال:

– يبدو أنها كانت تحذرك من صديقة السوء التي بدأت تتقربين منها في الآونة الأخيرة، وهي ذاتها العقل المدبر وراء كل ما يحصل من أسرار..

عادت أنظاره على الحضور فيما يقول:

– كما أخبرتكن.. هناك طالبتان فقط كان بإمكانهما كتابة جميع الرسائل ووضعها بأي وقت دون خشية أن يراهما أحد..

سكت قليلاً فأكمل:

– لقد استبعدت (لولوة) بعد أن انخفضت الأدلة ضدها..

وقف أمام إحدى الفتيات فرفع حاجبيه قائلاً:

– لم يبق سواك يا (دانة).

انتفضت الفتاة من مكانها، فقالت بإصرار:

– أنا لم أضع أي رسالة...

قاطعها قائلاً:

– إنك واحدة من فتيات المرشدات المسؤولات عن الطابق العلوي.. لم يكن باستطاع أي أحد أن يضع تلك الأوراق سواك، وكان بمقدورك مجرد فتح الباب لو كنت تملكين المفاتيح أو الانتظار حتى تفتح العاملة الفصول ثم تدخلين بأي وقت يحلو لك..

احمرَّ وجهها وصاحت بانفعال:

– هذا كذب!.. إنني لم أضع أي رسالة ولم أقتل أحداً.. وسبق أن أخبرتك بأن لا علم لي بالجريمة..

قال المحقق بتحدٍّ:

– كل الدلائل لدي تشير إلى أنك قاتلة الفتاتين..

حيث كانت جثة (سارة) ملقاة على جانبها الأيمن كما أسلفت الشرح، وكان الجرح على رقبتها مائلاً بهذا الشكل (\).. ومن المستحيل على شخص يستخدم يده اليمنى أن يسبب جرحا مائلاً بهذه الطريقة..

كما أنك من قام بتزوير رسالة (أماني)، ودليلي على ذلك أنك كنت في المكتبة معنا وسمعت كل ما دار حولنا، وكان من صالحك اتهام أقرب شخص تتكاثر حوله الشكوك بشأن الجريمة الأولى.. ولكن من سوء حظك بأن (أسيل) لم تكن هناك أدلة كثيرة ضدها على الرغم من شك الجميع بها!..

سكت لحظة ثم أكمل:

– علاوة على ذلك، خط الرسالة كان مائلاً للأعلى ومن المعروف أن من يكتب باليمنى سوف يميل خطه للأسفل، ولا توجد عسراء أخرى في الفصل سواك!

اقترب منها أكثر ثم قال مبتسماً:

هل لديك مما يفند ما قلته؟

صرخت الفتاة بغضب:

– أنت كاذب!.. لا دليل على ما تقول، كل هذا هراء لا أصل له من الصحة!..

اقترب اثنان من رجال الشرطة الواقفين عند الباب ثم اعتقلاها وسط صرخاتها التي أرعبت كل الحضور وأسقطت الدموع!..

وبعد دقائق من تراقص (الأدرينالين) في المكان، هدّأ المحقق الحضور ببعض الكلمات، ثم تقدمت مديرة المدرسة باكيةً تشكره على ما فعل من إظهار الحق..

حاول أن ينصحها بعدم الاستقالة كونها عاشت معظم حياتها في هذا المكان، ويمكنها أن تحافظ عليه آمناً ببعض الحذر والتوعية..

وبعد قليل من التفكير وافقت المديرة رأيه وأعربت عن امتنانها له..

بعد ذلك قدمت (نور) نحو المحقق وسألته:

– سيدي، إن هناك أمرا لا أفهمه.. في بعض الأيام تكون الجانية غائبة ولكننا نجد بعض الرسائل، فكيف ذلك؟

سألها:

– أين تجدن الرسائل بالضبط؟

قالت ببطء وكأنها عرفت جواب سؤالها بنفسها:

– في درج الطاولة.

ابتسم قائلاً:

– قد تكون وضعتها في اليوم السابق.

ثم هزت الفتاة رأسها مبتسمة فيما تلعن غباءها كونها لم تفكر بذلك من قبل.

خرجت والدة (سارة) من المكان بينما تجفف عينيها، فاقترب منها المحقق وألقى عليها التحية..

بعد ذلك لم تجد شيئاً لتقوله سوى أن تشكره بحرارة وتتمنى له السعادة في كل حياته، فقال مازحاً:

– هذا يعني أنك تتمنين أن تكون هناك المزيد من القضايا الصعبة والتحقيقات.

ابتسمت المرأة على رغم كل ما بها من أحزان..

حدق كل منهما في الآخر في صمت ثم غمغم المحقق بعدة كلمات قبل أن يغادر المكان.

تمت